5

مرحلة السبات العراقي (1258 ـ 1917)

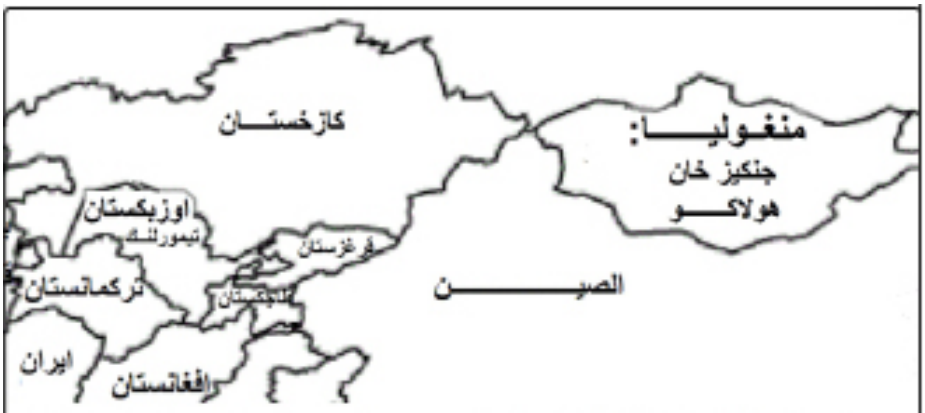

من هذه المنطقة:(منغوليا) اتى المغول، ومن جارتهم:(آسيا الوسطى) وبالذات تركمانستان وازبكستان وكازخستان،اتى الاتراك: سلاجقة واذربيجانيون: (الصفويون والقاجاريون) وتركمان (الخروف الابيض والاسود)، وعثمانيون..

تمثال تيمورلنك(الامير تيمور)، في عاصمة اوزبكستان

تمثال (جنكيز خان) في عاصمة منغوليا

لماذا السبات؟

منمنمة قديمة تصور حصار بغداد من قبل المغول

تسمى هذه المرحلة عادةً (الفترة المظلمة) وقد دامت حوالي سبعة قرون، منذ سقوط (بغداد) ونهاية الدولة العباسية عام 1258 حتى نهاية العثمانيين والاحتلال الإنكليزي عام 1917م. نحن نفضل تسمية: (سباتية) لأنها أكثر واقعية وأقل عمومية وانشائية من (ظلامية). يبدوا أن بعض الشعوب المتميزة بدورها التاريخي، مثل الشعب العراقي، تشبه بعض الحيوانات ذوات الدم الحار، مثل (الخفافيش، القوارض، الدببة، وغيرها)، إذ (تسبت) في موسم الشتاء، تستمر نائمة شبه ميتة، ولا تصحوا إلاّ مع موسم الدفء. كذلك هذه الشعوب تعيش حقبة السبات والاختفاء من التاريخ، حتى تصحوا وتبدأ من جديد دورة نشاط وحياة. هذا تقريباً حال الشعب العراقي و(عموم شعوب العالم العربي) في هذه المرحلة. فبعد كل حقبة حضارية كبرى يسري التعب والهرم فيها فتتراجع (تسبت) تاركة القوى الاقليمية والدولية تصول وتجول براحتها.

كذلك نحن لسنا مع التفسير السائد والقائل بأن سبب (ظلامية وتخلف) هذه المرحلة يعود الى (الاتراك العثمانيين). نعم هي (مظلمة) لكن في بداياتها خصوصاً، من خلال مقارنتها بالمرحلة الحضارية (العباسية) التي سبقتها، وكذلك مقارنة بالحالة الحضارية التي بلغتها أوربا المجاورة منذ القرن السادس عشر. لكن السبب ليس (أقوامياً ولا دينياً)[1] مرتبطاً بـ (المغول) و(الأتراك)، بل يكمن في المرحلة نفسها بكل جوانبها

(1) ـ للتذكير نحن نستخدم كلمة: (اقوامي:Ethnic) كتسمية حيادية، من (قومية أو عرق: Ethnie)، بالتمايز عن الوصف السياسي العقائدي: (قومي:Ethniste) أي التركيز على القومية.

الداخلية والخارجية: (ظهور دول جديدة واختلاف طرق التجارة والحروب الصليبية، وتغير المناخ، وغيرها من الاسباب). يكفي التذكير بأن ايران والصين واليابان وحتى روسيا واوربا الشرقية وغالبية بلدان الأرض، عدا أوربا الغربية، في هذه الفترة ما كانت أفضل حالاً. ثم ان (الدولة البيزنطية المسيحية) التي شيد الاتراك على انقاضها دولتهم العثمانية، كانت من الاساس تعاني التخلف والفساد الذي أدى الى انهيارها. ولا ننسى بأن (المغول) في هذه الحقبة قد صنعوا حضارة إسلامية مزدهرة في (الهند). ثم ان (الأتراك) في المرحلة العباسية قدَّموا مساهمات إبداعية متميزة ومبدعين كبار أمثال: (البخاري، والترمذي، والبيروني، والفارابي، وابن سينا..).

نهاية الدولة العباسية والانتحار المصيري للامبراطوريات!

بالنسبة للعراق، فإن انحطاط المنطقة قد بدأ أولاً في أواخر المرحلة العباسية ومن داخل المجتمع العباسي العراقي نفسه وبالذات النخب الثقافية والسياسية الفاعلة، حتى بلغ ذروته في سقوط الدولة على يد المغول. ثم استمر بصورة طبيعية خلال القرون اللاحقة. بمعنى أن المغول ثم العثمانيين أتوا ليكملوا انحطاطاً قد بدأ قبلهم منذ قرون.

إن أعمار الدول والامبراطوريات مثل أعمار البشر: طفولة ومراهقة وشباب ونضوج وازدهار، ثم شيخوخة وانهيار. وهذا بالضبط ما عاشته جميع الامبراطوريات السالفة وآخرها الساسانية والرومانية، وهاهي (الامبراطورية العباسية) تكرر نفس المصير المخطط من قبل قوانين الكون الخفية. خلال خمسة قرون من عمرها كانت في أول الامر قد بلغت أوج توسعها السياسي: من حدود الصين الى حدود فرنسا. كالعادة وكما حصل في جميع الامبراطوريات، بالتدريج عمّت المنافسات الداخلية والانشقاقات بين (أطراف الطبقة الحاكمة). وكان أولها وأخطرها (تفرّد العباسيين بالحكم وضرب حلفائهم العلويين).

كما العادة أيضاً، يكون الملوك الاوائل من المكافحين والمشيدين الحريصين على تثبيت الدولة وكسب الشعب. ولكن مع الزمن وتنامي الثروات والسلطات، تظهر أجيال جديدة من الملوك والحاشية من الذين نسوا تماماً كفاح أسلافهم، لأنهم يعيشون في

بطر ودلال بين الغلمان والحريم والاتباع والمستشارين الانتهازيين المستفيدين. فينشأون ضعفاء بلداء وربما مخنثين، لا يفقهون مصاعب الحياة ومخاطر السلطان. فيعم الكسل وعادات البذخ والتخمة والفساد، وتسيطر على الرجال إغواءات ودسائس نساء القصور وجواريها، وتستفحل المنافسات والانشقاقات والمؤامرات، الى حد أن يقتل الاخ أخاه والابن أباه، وتنتشر الاغتيالات عن طريق السموم وفقئ العيون والخنق بالمخدات بأيادي الجواري. هكذا بالتدريج ينتشر الضعف في الدولة فتبدأ تمردات الاحزاب والطوائف ومعها انفصالات المناطق والبلدان لتنبثق دويلات تابعة ومنافسة.

بعد قرن من تأسيس الخلافة والعاصمة (بغداد)، أصبح الخليفة عملياً وخلال (القرون الثلاثة) اللاحقة لا يحكم فعلياً (سوى العراق) الدائم الهيجان والتمرد. بل حتى في (العراق) كان الخليفة مضطراً بصورة دائمة الى الاستعانة والخضوع الى قوات سلاطين آخرين: (الترك التركمان)، ثم (البويهيين الايرانيين)، ثم (الترك السلاجقة). في القرن الخامس الاخير تمكن خلفاء بغداد من الحصول على نوع من الاستقلالية ولكن ايضا بدعم حلفائهم الاتراك: (الأتابكة)، وفي كل الاحوال كانت الدولة والمرحلة في حالة انهيار مستمر، والمارد (المغولي) قد اتى ليساعد التاريخ على تحقيق الخراب الكامل!

ازدهار الحضارة ونهايتها

أما بالنسبة للمجتمع والحضارة، فهنا تكتمل غرابة القوانين الخفية لنظام الكون وكيف أنها تتكرر تقريباً بحذافيرها على جميع الامبراطوريات: قدر ما تنحط الامبراطورية وطبقتها الحاكمة بسبب استفحال البذخ والفساد، يحصل العكس تماماً في المجتمع والثقافة: تزدهر الحياة الثقافية وتنبثق الحضارة وتنتشر وتبلغ أوجها. هنالك تفسير بسيط ومنطقي: إن ثراء وبذخ الطبقة الحاكمة يؤدي تلقائياً الى ازدياد حاجتها وصرفها الاموال لتشجيع وسائل المتعة والجمال بكل أنواعها العلنية والخفية، الشرعية والمحرمة: فنون الموائد والطبخ والشراب، والمعمار والحدائق، والموسيقى والغناء والشعر والازياء والنقوش والتجميل، مع تنامي عدد ونشاط فنانات المتعة بكل صنوفها وجماليتها وابتكاراتها.

ثم لا ننسى أن الطبقة الحاكمة مهما كانت مهملة وفاسدة، فإنها بحاجة الى (الثقافة والمثقفين: علماء وأدباء وفنانين وفقهاء) من أجل خدمتها وترتيب أمور البلد حسب الممكن، وأيضاً الدعاية والدفاع عنها ودعم دولتها. ومن الطبيعي أن يظهر من أبناء هذه الطبقة أشخاص لهم ميول شخصية الى الثقافة والعلوم، إما لرغبة حقيقية أو من أجل التفاخر ومنافسة الخصوم. لهذا فإن الابداع الثقافي والحضاري يستمر وينمو رغم تراجع الدولة وضعفها السياسي والعسكري، مادامت مصادر الثروة والبذخ مستمرة. يضاف الى هذا وجود عامل مهم الى جانب الدعم المادي، ألا وهو طبيعة الشعب المحكوم ومدى قدراته وميوله الطبيعية نحو المتعة والابداع والخيال، وهذه من أهم صفات العراقيين على مرّ الأزمان منذ حضارتهم القديمة وحتى الآن.

سقوط (بغداد) على يد المغول

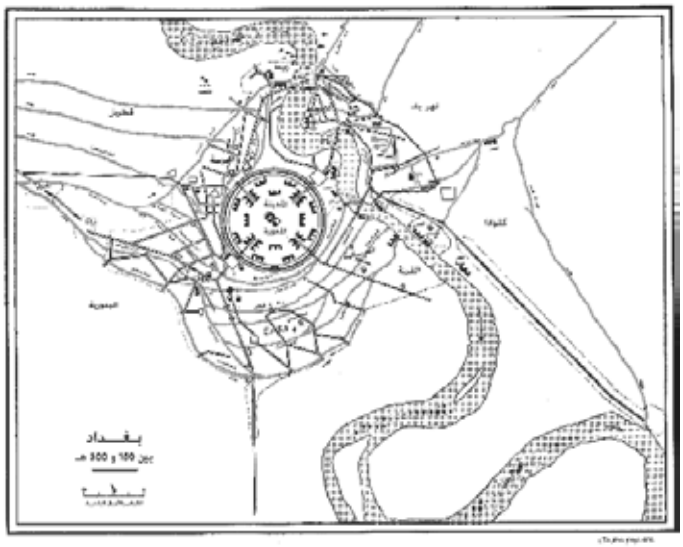

خارطة بغداد قبل سقوطها

يمكن تقسيم هذه المرحلة الآسيوية في العراق إلى فترتين مختلفتين:

ـ الفترة المغولية ـ التركمانية (1258م ـ 1534م): ودامت حوالي ثلاثة قرون بعد سقوط (بغداد)، وهي فترة عصيبة مضطربة جداً تغيرت فيها الفئات الحاكمة (مغولية وتركمانية وصفوية) بصورة دائمة ودامية.

ـ الفترة العثمانية (1534م ـ 1918م): وكانت فترة شبه مستقرة مقارنة بالفترة السابقة، تخللتها اجتياحات واحتلالات إيرانية بين حين وآخر. يجب التوضيح أنه رغم الاسم (العثماني التركي) الذي تحمله هذه الفترة، إلاّ أنَّ معظم ولاة العراق والمتنفذين في إدارته ما كانوا من الأتراك بل من أصول بلقانية وقفقاسية[2].

كانت الدولة المغولية قد تأسست من قبل (جنكيز خان) عام 1206 وهو زعيم اتحاد القبائل المغولية البدوية مع العديد من القبائل التركية. وقد تحولت الى واحدة من أكبر الامبراطوريات حيث بلغت أقصاها بعد قرنين (عام 1405) من حوض الدانوب حتى بحر اليابان، ومن حدود فلندا حتى كمبوديا.

عام (1226 ـ 1242) تمكن جيش (الخليفة المستنصر) من دحر الهجوم المغولي الأول. لكن ابنه المستعصم (1242 ـ 1258) وهو آخر الخلفاء، كان بخيلاً فاسداً يحرص على كنوزه أكثر من دولته. في عام 1245 حاصر المغول بغداد دون تحقيق نجاح، ولكن الفساد وإهمال الري في العراق أدى إلى اجتياح الفيضانات التي دمرت آخر ما يمتلكه العراقيون من طاقة للمقاومة المادية والمعنوية.

بعد محاولات عديدة لاقتحام بغداد تكررت خلال سنوات طويلة تمكن أخيراً قائد الجيش المغولي (هولاكو) حفيد (جنكيزخان) في 10 شباط 1258 من اقتحام العاصمة وإعدام الخليفة (المستعصم). بذلك انتهى العباسيون ولفظت آخر أنفاس واحدة من أكبر الإمبراطوريات مساحة وعمراً وحضارة ومجداً. لقد دمرت مدينة (بغداد) فعلياً، ويقال إن عدد الضحايا قد قرب المليون أبيدوا أو هجِّروا. لحسن الحظ إن بقية مدن العراق مثل الحلة والكوفة والبصرة وأربيل والموصل وكركوك، قد رضخت لشروط الفاتح وأبقيت على حالها.

---

(2) ـ بخصوص العثمانيين، مهما كان تعسفهم وسلطويتهم (مثل الكثير من الدول)، إلاّ أن هنالك الكثير من التشويهات والمبالغات العنصرية ضدهم، التي تنفيها مصادر التاريخ. مثل القول بأنهم كانوا متعصبين مسلمين وضد المسيحيين: في مطلع القرن العشرين شكّل المسيحيون بين 17.5% إلى 25% من مجمل سكان أراضي تركيا الحاليَّة، وفي عام 1910 ضمت تركيا الحالية سابع أكبر تجمع سكاني مسيحي أرثوذكسي في العالم؛ لكن انخفضت نسب وأعداد المسيحيين عقب الإبادة الجماعية للأرمن وبعض الطوائف المسيحية الأخرى، فضلاً عن عملية التبادل السكاني لليونانيين الأرثوذكس وضريبة الثروة التركية عام 1942 وبوغروم إسطنبول عام 1955 والتي أدَّت إلى هجرة أغلبية مسيحيين من إسطنبول.
كذلك كان العديد من السلاطين من أمهات مسيحيات، مثل (محمد الفاتح: أمه صربية)، و(سليم الأول: أمه روسية) و(مراد الثالث: أمه إيطالية)، والعديد من السلاطين.. ابحث عن: (قائمة أمهات السلاطين العثمانيين)..

طريقة موت الخليفة ونهاية الخلافة، مثال على انتحار الامبراطوريات!

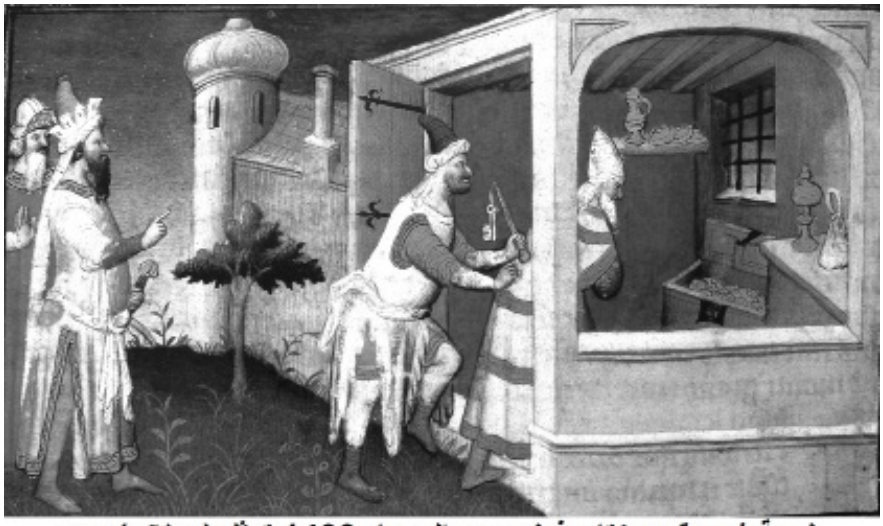

لوحة شهيرة من كتاب فرنسي حوالي عام 1400 تمثل (هولاكو) وهو يرمي آخر الخلفاء(المستعصم) في حجرة كنوزه ليموت جوعا مع ذهبه!

من يعاين السنوات الثلاثين التي سبقت سقوط (بغداد) يجد نفس الحالة التي عاشتها جميع الامبراطوريات قبل سقوطها: الفقدان التام للقدرة على معاينة الواقع والاعتراف بأن عثّ الاهمال والشقاق قد نخر أساس الدولة والطبقة الحاكمة. فتراهم يستمرون بكل اصرار وعماء في هبوطهم في درب الهاوية، وكأن هنالك قوى جبارة غامضة تصيب المسؤولين وعوائلهم وناسهم، بالثمالة والحاجة الى الانتحار. وجميع قراراتهم وخطواتهم التي يعتقدون أنها ستنقذ دولتهم، هي التي تساعد على انهيارها!

أسطع مثال على هذا سلوك آخر الخلفاء: (المستعصم 1242 ـ 1258) الذي رغم المجاعات والامراض والفيضانات التي اجتاحت (بغداد) بالاضافة الى المغول الذين يحاصرونها، كان يرفض تمويل الفرق القتالية الشعبية التي تكونت في بغداد للدفاع عن بغداد وعن الخليفة نفسه، وهو يشتكي من فراغ الخزينة. تبلغ المفارقة ذروتها، ان زعيم المغول (هولاكو) بعد اقتحام بغداد، اكتشف ان كنوزاً عجيبة يخفيها الخليفة تحت بساط عرشه! فما كان من زعيم المغول، إلاّ أن يأمر باعدام (المستعصم) بطريقة مناسبة وبليغة: حبسه مع كنوزه، وهو يخاطبه: (نتركك لتعيش وتتغذى مع ذهبك الذي بخلت به على أنصارك)، حتى مات هذا الخليفة البائس جوعاً بين أكوام ذهبه!

***

الفترة المغولية ـ التركمانية: 1258 ـ 1335

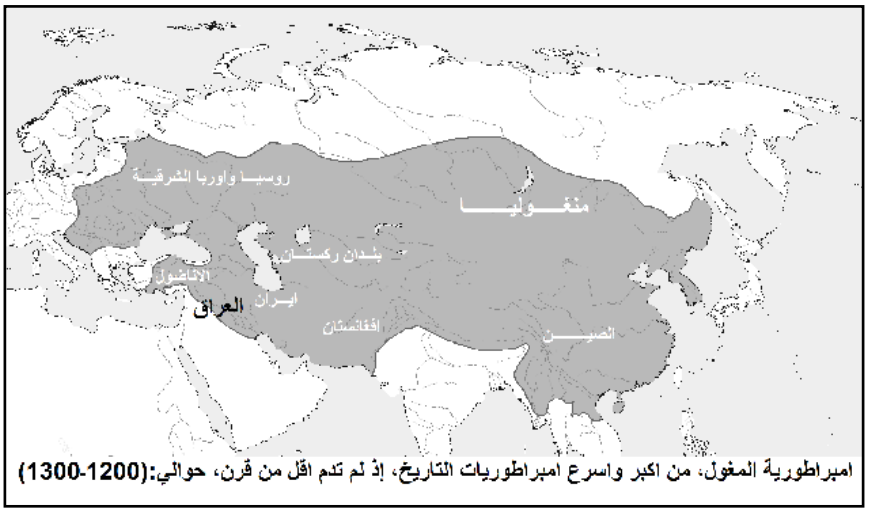

امبراطورية المغول: من اكبر واسرع امبراطوريات التاريخ، إذ لم تدم اقل من قرن، حوالي:(1200-1300)

من هم المغول والترك؟

هنالك أصل مشترك بين الجماعتين من الناحية اللغوية (عائلة اللغات الالتائية: Altaic languages: التركية والمنغولية والسيبيرية وبعض الصينية واليابانية والكورية)[3]. هنالك أصول مشتركة بعيدة بين هذه الشعوب بحكم تجاورهم الجغرافي وتداخلهم القبائلي. يبدو أن البحوث الجينية الأخيرة قد بينت أن جميع الشعوب التي أسميناها (الجنس الأصفر) بمن فيهم هنود أمريكا، أصلها من (منطقة سيبيريا: شمال روسيا والصين ومنغوليا)، ثم بالتدريج هبطوا وعمَّروا الصين واليابان وجنوب آسيا، واختلطوا مع أجناس أخرى مختلفة.[4]

ـ **المَغُول:** أو المنغول ومنهم التتار، هم قبائل (بلاد منغوليا) الحالية ما بين سيبيريا والصين تجمعهم اللغة (المنغولية). توحدت معظم قبائل المغول ومعهم بعض قبائل

(3) ـ اللغات الألتائية هي مجموعة لغات تضم ثلاث أسر لغوية وهي:
اللغات التركية / اللغات المنغولية / اللغات المنشورية الصينية
ويختلف العلماء على لغتين: اليابانية والكورية
وقد سميت هذه اللغات بالألتائية نسبة إلى جبال ألطاي في آسيا الوسطى

(4) ـ عن الجنس الأصفر فإن البحوث الجينية في السنوات الأخيرة قد أثبتت أن الجنس الأصفر من سيبيريا:
_ Une petite région de Sibérie serait le berceau génétique des Amérindiens/
Siberian Town Stakes a Claim as Humanity's Cradle

الترك المجاورة لهم في القرن 13م تحت قيادة (جنكيز خان)، ليشكلوا أكبر وأسرع إمبراطورية، من الصين حتى الأناضول وروسيا وأوربا[5].

ـ **الشعوب الناطقة بالتركية:** فتعود جذورها الى فرع من الجماعات المنغولية التي هبطت جنوباً إلى (منطقة آسيا الوسطى: أوزبكستان، كازخستان، طاجكستان، قرغيزستان، تركمانستان، والقسم التركي المسلم من الصين)، وقد شاع عن هذه المنطقة الشاسعة اسم: (بلاد ما وراء النهر)، وكذلك (تركستان) و(طوران)[6]. هناك اختلطت بالشعوب الآرية والشرق الأوسطية بحيث إنها فقدت جيناتها وملامحها الأصلية (الصفراء)! أما قبائل (التركمان والأذريين والعثمانيين)، فجميعهم (أتراك) هاجروا من (أواسط آسيا)، وطبعاً اختلطوا وضموا العديد من الجماعات المختلفة أثناء هجراتهم وفي بلدان استقرارهم. فهم مثل كل المجموعات (الاقوامية ـ اللغوية) الكبرى، أمثال العرب والصين والهنود والأوربيين وغيرهم، لا يعودون لأصل عرقي مشترك، بل تجد فيهم الجنسين الأصفر والأبيض، واختلط فيهم المغول والآريون والساميون.

علاقة (الترك) مع أهل العراق

وهي علاقة قديمة جداً، سكانية وتجارية ودينية. وقد توطدت بعد الميلاد حيث انتشرت بينهم (المسيحية السريانية) و(المانوية البابلية) بفضل المبشرين القادمين من بلاد النهرين[7]، و(للترك) حضور قديم في العراق من خلال الجيش الساساني الفارسي الذي كان يضم الكثيرين منهم، واستقروا في العراق بعد اعتناقهم للاسلام.

---

(5) ـ المغول لا زالوا بأغلبيتهم على (الشامانية: عبادة الطبيعة):
ـ Histoire des Mongols de Jean ـ Paul Roux, Éditions Bayard

(6) ـ من الأفضل استخدام تسمية (تركستان) للحديث عن جميع الشعوب الناطقة بهذه اللغات (التركستانية). تمييزاً عن تسمية (أتراك وتركي) التي تعني حصراً (دولة تركيا الحديثة)، ويبدو أن هذا التمييز بين المفردتين موجود حتى في اللغة التركية نفسها، حيث يقال (Turcica) بمعنى (تركستاني) و(Turkish) بمعنى (تركي).
ـ عن الترك والتركمان طالع مثلا: كتاب (أقليات في الشرق الأوسط) فايز سارة، دار مشرق ـ مغرب، الصفحات 77 ـ 93.

(7) ـ الترك كانوا على (العقيدة الشامانية: عبادة الطبيعة) ثم انتشرت بينهم البوذية والمسيحية والمانوية وأخيراً الإسلام:
ـ Frederik Coene, The Caucasus - An Introduction, p.77 Taylor & Francis, 2009

بعد الاسلام توطدت العلاقة بشكل كبير جداً من خلال الجيش الإسلامي الذي فتح عموم آسيا؛ لأنه كان قادماً من العراق وبقيادة (القائد العراقي البصري قتيبة بن مسلم)[8] وغالبية جيشه من أهل العراق الذين نشروا الإسلام والعربية بين شعوب ايران وخراسان وتركستان[9]. وقد استقر غالبية المحاربين العراقيين هناك، ولا زال ضريح هذا الفاتح البصري في (وادي فرغانة) في أوزبكستان.

بعد انتشار الاسلام بينهم برز منهم الكثير من الفقهاء والعلماء المسلمين، مثل: (البخاري والترمذي والبيروني والفارابي وابن سينا)[10]، وقد استعان بهم العباسيون كمحاربين: (بدو آسيا) لمواجهة (بدو أوربا) الصليبيين. هكذا شرعوا ينزحون نحو إيران وآذربيجان والعراق والأناضول (تركيا الحالية)، وأنشأوا العديد من السلالات والإمارات والدول، مثل الغزنوية والسلجوقية والخروف الأسود والأبيض، في تركمانستان وافغانستان وإيران والعراق، ثم الصفوية والقاجارية في إيران، ثم العثمانية في الأناضول.

في العصر الحالي يمكن الحديث عن ثلاث مجموعات أساسية تركية في الشرق الأوسط: تركمان العراق، وآذربيجان (بقسميها المستقل والتابع لإيران)، بالإضافة إلى تركيا، وهذه المجموعات الثلاث رغم اختلاف التسميات، إلاّ أنها تتكلم بلغة تركية فصيحة واحدة وتعتنق الإسلام مع اختلاف اللهجات والثقافات والمذاهب.

(8) ـ (قتيبة بن مسلم البصري الباهلي) من أعظم الفاتحين المسلمين، ولد في البصرة سنة 49هـ لأسرة من قبيلة باهلة النجدية، ولاه عبد الملك بن مروان الري وخراسان التابعة لوالي العراق (الحجاج)، ومن خراسان سنة 86هـ شرع بفتح بلاد ما وراء النهرين (تركستان)، وعاش فيها ثلاث عشرة سنة ومات هنالك وقبره في (أوزبكستان)!

(9) ـ يقول الطبري في صفحة 221 الجزء الرابع من كتابه الشهير (تاريخ الأمم والملوك): ((إن عبيد الله بن زياد قام في شهر ربيع الأول سنة 54 هـ (673م) بهجماته عبر (جيحون) على (بخارى) ثم على (بيكند)، فقاومه الجيش التركي تحت إمرة الملكة (قبج خاتون) مقاومة شديدة جدًّا، جلبت انتباهه وإعجابه لما لمسه فيهم من شجاعة فائقة وحسن استعمال الأسلحة، فاختار منهم ألفي مقاتل يحسنون الرماية بالنشّاب فبعثهم إلى العراق وأسكنهم البصرة))، وطبعاً فإن هؤلاء من التركمان قد انصهروا مع العراقيين واستعربوا مثل الآلاف المؤلفة من المهاجرين من مختلف البلدان.

(10) ـ عن أعلام الترك المسلمين، راجع الفصل السابق.

الاتراك وأهل البصرة!؟

كتاب
ديوان لغات الترك
محمود بن الحسين بن محمد الكاشغري
١٠٦٦ سنة هجرية
١٣٣٣

اول كتاب صدر باللغة التركية، وهو قاموس عربي تركي، كتبه في بغداد العباسية عام 1076 العلّامة (محمود الكشغري) (كشغر، حاليا في تركستان الصين). وقد اهداه الى ابن الخليفة المقتدي بأمر الله.

يذكر المؤرخ الطبري: ((إن عبيد الله بن زياد قام في (54 هـ: 673 م) بهجماته عبر (جيحون) على (بخارى) ثم على (بيكند)، فقاومه (جيش الترك) تحت إمرة (الملكة قبج خاتون) مقاومة شديدة جداً، جلبت انتباهه وإعجابه لما لمسه فيهم من شجاعة فائقة وحسن استعمال الأسلحة. بعد الانتصار والاستقرار اختار من الترك ألفي مقاتل يحسنون الرماية بالنشّاب فبعثهم إلى العراق وأسكنهم البصرة)).

تاريخ الأمم والملوك: الطبري/ الجزء 4 /ص221

طبعاً هؤلاء الترك مثل العديد من جموع المهاجرين (رجال وكذلك نساء) من مختلف الاجناس، قد انصهروا في أهل العراق واستعربوا، وربما بعضهم من خلال التزاوج قد أسَّس (عشائر عربية) تعتقد بأنها منحدرة من اليمن وقحطان وعدنان!؟ وهذا أمر طبيعي حصل في جميع شعوب الارض.

الفترة المغولية الايلخانية والجلائرية

بعد الاحتلال المغولي فقدت (بغداد) مركزها الإمبراطوري وأصبح العراق كله محكوماً من قبل مدينة (تبريز) عاصمة آذربيجان ايران، حيث مقر الحكم المغولي الإيلخاني. كان الحكم عموماً مشتركاً بين الإداريين المدنيين العراقيين من مسلمين ومسيحيين ويهود يراقبهم قادة جيش المغول.

يعتبر الخان (محمود غازان) (1295 ـ 1304) أول سلطان مغولي اعتنق الإسلام

وجعله دين الدولة، ثم أعقبه شقيقه (محمد خودابندا أولجايتو (1280 ـ 1316م) ثامن ملوك الإلخانية وابن حفيد هولاكو، وله حكاية طريفة مع الأديان: إذ عمَّدته أمه بعد ولادته مسيحياً باسم نيقولا، ثم تحول إلى الإسلام السني، ثم اعتنق الإسلام الشيعي على يد العالم الشيعي (العراقي) (ابن المطهر الحلي)، ثم عاد إلى السنّة[11].

ـ المغول الجلائريون (1336 ـ 1432): وميزة هذه الفترة أن (بغداد) أصبحت هي عاصمة الدولة. الجلائريون هم سلالة مغولية بقيادة (حسن بوزرك) الذي أسس قاعدته في العراق، ثم تمكن بعدها من محاربة منافسيه في باقي الإمبراطورية، وأخيراً قام ابنه (الشيخ عويس 1356 ـ 1374) بفرض السيطرة على آذربيجان في عام 1360، وقام ببعض الإصلاحات في العراق مثل تشجيع التجارة ورعاية الأدب والرسم والخط، ونفذ بعض المشاريع العمرانية في بغداد.

المغول والمسيحية النسطورية العراقية!

كان المغول عموماً على (ديانة الشامانية: عبادة الطبيعة) بالاضافة الى البوذية والاسلام والمانوية وغيرها. كذلك تنتشر بينهم منذ قرون الكنيسة السريانية النسطورية العراقية، إذ إن زوجة (هولاكو) (دوقوز خاتون: Doquz Khatun) كانت من اتباع هذه الكنيسة. ويبدو أن المغول في أول احتلالهم للعراق قد تفاهموا مع المسيحيين العراقيين ودعموهم. لهذا فإن الكثير من أعيان بغداد والتجار ورجال الدين المسلمين واليهود، كي ينجوا من الموت ويحفظوا أموالهم، قد التجأو الى الكنائس، وكذلك الى دار (ابن العُلقُمي) الوزير العباسي الشيعي الذي تفاهم مع المغول ليحمي ما يمكن حمايته.ولكن حال المسيحيين قد ساء بعدما اعتنق أحفاد (هولاكو) الاسلام وأولهم (محمود غازان:1295 ـ 1304).

الفترة التركمانية

بعد صراعات طويلة بين أطراف (التحالف المغولي ـ التركي)، تمكن زعيم (تركي من اوزبكستان) اسمه (تيمورلنك) من السيطرة على الإمبراطورية المغولية. ثم قام

(11) ـ عن السلطان محمد خودابندا:
د. نرجس أسعد كدرو، موقف المغول الإيلخانيين من المذاهب والأديان، رسالة ماجستير في التاريخ الإسلامي، جامعة عين شمس ـ كلية الآداب، 2009، ص203.

باجتياح (بغداد) كذلك (تكريت) في 1393، وأجبر السلطان الجلائري (أحمد) على مغادرة العراق وطلب حماية المماليك في مصر حتى موت تيمورلنك في 1405. تخللت هذه الفترة عمليات كر وفر بين المتنافسين المغوليين والترك، أدت إلى تدمير (بغداد) مرات عدة، وبدون رحمة.

ـ دولة الخروف الأسود (قرة قوينلو) (1375 ـ 1468)

وهي مجموعة قبائل جديدة (تركمانية) كانوا متحالفين مع المغول ومنتشرين في العراق وآذربيجان، وحملوا هذه التسمية لأن شعار رايتهم كان (خروفاً أسود). بعد ضعف المغول وانقساماتهم تمكن زعيم القبيلة (قرة يوسف 1389 ـ 1420) من تأسيس دولته أولاً في آذربيجان بدعم من المماليك المصريين، وتخللت هذه الفترة حروب لا تنتهي بين القبائل المغولية والتركمانية المتنافسة، وكان العراق في غالب الأحيان ساحة لها، وبعد سنتين من الحروب انتصرت قوات قبيلة (الخروف الأبيض) وصار العراق تابعاً لها.

ـ دولة الخروف الأبيض (آق قوينلو) (1378 ـ 1508)

وهو أيضاً اتحاد قبائلي تركماني حكم أولاً شمال العراق، وآذربيجان وشرق الأناضول، وشعار رايتهم هو (الخروف الأبيض)، وكانوا موجودين في الأناضول ومعظم قادتها كانوا متحالفين مع البيزنط بحيث إن مؤسس الدولة (قرة عصمان: حكم بين 1378 ـ 1435) تزوج من أميرة بيزنطية. تمكن (أوزون حسن 1452 ـ 1478) من توسيع الدولة نحو إيران حتى أفغانستان والخليج العربي، ولكن في هذه الفترة برزت قوتان تركيتان جديدتان وخطرتان: (الصفويون: وهم أتراك آذريون، تحولوا إلى المذهب الجعفري الشيعي) وفرضوا أنفسهم على باقي إيران. ثم (العثمانيون ـ وهم أتراك سنة حنفية) في الأناضول الذين أنهوا الدولة البيزنطية واستولوا على عاصمتها المقدسة: (القسطنطينية ـ إسطنبول) في عام (1453). أخيراً عام (1501) تمكن جيش الصفويين في إيران بقيادة (إسماعيل الصفوي) من هزيمة جيش التركمان بقيادة (مراد بگ) سلطان العراق الذي حاول المقاومة والحفاظ على بقايا الدولة، لكنه اندحر أمام الصفويين الذين احتلوا بغداد عام 1508.

***

الفترة العثمانية (1529 ـ 1917)

وتحول العراق الى ساحة صراع: ايراني شيعي ـ عثماني سنّي!

إبتداء من عام 1500 تغيرت موازين القوى في (الشرق الاوسط) بصورة كاملة بسبب ظهور دولتين قويتين جديدتين:

ـ **الدولة الصفوية الشيعية:** التي تمكنت من توحيد ايران وفرض سلطتها على الهضبة الايرانية بكاملها.

ـ **الدولة العثمانية السنيّة:** التي بعد قرون من الكفاح والتمدد البطيء في الاناضول ضد (الدولة البيزنطية المسيحية)، تمكنت أخيراً من اسقاط العاصمة المسيحية المقدسة (القسطنطينية: اسطنبول) وتكوين دولة قوية على جميع هضبة الاناضول بالاضافة الى البلقان.

الدولة الصفوية وتشيع إيران

الصفوية، طريقة صوفية نسبة إلى الشيخ «صفي الدين الأردبيلي» (1252 ـ 1334) التركماني السني الشافعي. مع الزمن تطورت وجذبت أتباعاً كُثراً، حتى أضحت قوة سياسية نافذة في شمالي غرب إيران وشرقي الأناضول في القرن الخامس عشر، وتحولت من الوعظ إلى الجهاد الى التشيع مع أحد أحفاد الشيخ صفي الدين وهو «الجنيد» (1460) الذي مثّل نقلة في تاريخ الحركة. وقد نجح حفيده (إسماعيل الأول) المعروف باسم «الشاه إسماعيل» (1487 ـ 1524) بتأسيس الدولة الصفوية الشيعية، وتعيين نفسه كأول شاه لها، والقيام بتجميع جنود الحركة الذين عرفوا بعد ذلك باسم «القزلباش: الرؤوس الحمر». وهي طريقة صوفية تغالي بتقديس (الامام علي).

حتى قيام الحكم الصفوي عام (1508) كان الشيعة في إيران أقلية. (الصفويون) هم أيضاً أتراك، وعاصمتهم (تبريز) في آذربيجان، ثم بعدها (أصفهان)، لكنهم جعلوا اللغة الرسمية الوطنية: (الفارسية). أما اللغة الدينية والعسكرية فهي (التركية

الآذرية)[12]. وقد تمكن السلطان المؤسس (إسماعيل الصفوي) بقوة السيف والمجازر المريعة بحق قيادات السنّة أن يفرض التشيع. فانحصر الوجود السني في المناطق الجبلية العصية، بين الأكراد على حدود العراق والأناضول، والبلوش عند حدود باكستان. وقد استعان بالفقهاء الشيعة الشاميين (حوزة جبل عامل: لبنان)، وعلى رأسهم (الشيخ الكركي) الذي منحه الشاه سلطات دينية ومالية واسعة، فتمكن من تشييد (المراكز الشيعية) في جميع أنحاء إيران، وأعقبه فقهاء عديدون من لبنان[13].

اسباب تشيع ايران

ان انجازات التاريخ الكبرى يستحيل ان تظهر وتنجح لمجرد الصدفة ومزاج الزعيم، بل لا بد ان تكون تعبيرا عن حاجة دفينة في اعماق الناس ومدعومة بظروف سياسية ونفسية ومصالحية تدعم نجاحها. هكذا إذن ليست صدفة ان تتخذ الدولة الصفوية قرار تحويل إيران إلى التشيع، الذي كان يبتغي قصداً وسليقة هذين الهدفين:

1 ـ حماية إيران من الخطر العثماني (السنّي التركي)، وخصوصاً أن (الدولة الصفوية، وبعدها القاجارية) أيضاً مسلمة وكذلك ناطقة بالتركية، إذن لن يميزها ويحميها غير (سور المذهب الشيعي). فتمكنوا فعلاً مع الزمن أن يجعلوا من التشيع مع الإسلام أساس (الهوية الوطنية الإيرانية) والعامل الأول الجامع للإيرانيين

(12) ـ الصفوية، طريقة صوفية نسبة إلى الشيخ «صفي الدين الأردبيلي» (1252 ـ 1334) التركماني السني الشافعي واستطاع أبناؤه وأحفاده من بعده تأسيس بنية هرمية للحركة وقفوا فيها على منصب شيخ الطريقة الأكبر.
تطورت الطريقة الصفوية وجذبت أتباعا كثراً، حتى أضحت قوة سياسية نافذة في شمالي غرب إيران وشرقي الأناضول في القرن الخامس عشر، وتحولت من الوعظ إلى الجهاد والتشيع مع أحد أحفاد الشيخ صفي الدين وهو «الجنيد» (ت1460) الذي مثّل نقلة في تاريخ الحركة؛ أدت إلى إعلان حفيده إسماعيل الأول المعروف باسم «الشاه إسماعيل» (1487 ـ 1524) قيام الدولة الصفوية الشيعية وتعيين نفسه كأول ملك لها، والقيام بتجميع جنود الحركة الذين عرفوا بعد ذلك باسم «القزلباش: الرؤوس الحمر».

(13) ـ قدمت حوزة جبل عامل عدداً كبيراً من علماء الشيعة لخدمة الدولة الصفوية الشيعية التي كانت بحاجة لغطاء شرعي في صراعها مع الدولة العثمانية السنية. من هؤلاء العلماء: الشيخ نور الدين علي بن الحسين بن عبد العالي الكركي الملقب بالمحقق الثاني الذي تعلم على عادة شيعة لبنان في المدارس السنية والشيعية في الشام ومصر. في عام 1510 التقى (إسماعيل شاه الصفوي) والتحق بخدمته، وجاء بعد الكركي مجموعة من العلماء الذين تأثروا به ونهجوا نهجه، مثل حسين بن عبد الصمد العاملي (ت: 984هـ/ 1576م) وعبد العالي بن عبد العالي الكركي (ت: 993هـ/ 1585م) وبهاء الدين العاملي (ت: 1031هـ/ 1621م).
والشيخ موسى بن جعفر الذي نجح في تسوية الخلاف بين الدولتين الإيرانية القاجارية والتركية العثمانية».

بمختلف قومياتهم ولغاتهم العديدة، حالياً: نسبة الشيعة قد تقرب 90%. أما الناحية اللغوية القومية (الفرس أكثر من 50%، والناطقون بالتركية أكثر من 20%، بالإضافة إلى الكرد والعرب وغيرهم)[14].

2 ـ خلق الحجّة الدينية والطائفية لتبرير الهدف الإيراني التاريخي والأساسي باحتلال العراق (كما وضَّحنا في الفصول السابقة). فإيران ظلت دائماً تقلد العراق حضارياً ودينياً. ويقيناً لو أن العراق كان على ديانة أخرى، مثل البوذية أو اليهودية، لكان من المؤكد أن تصبح إيران كذلك. فقط من أجل تقليده ومنح شعوب إيران السبب للتعلق به والاندفاع لاحتلاله (وتحريره من أعداء الدين والمذهب)! فهاهي ايران منذ الدولة الصفوية وحتى العصر الحالي، ارتكبت مختلف عمليات التآمر والحروب والاجتياحات مرات ومرات بحجة: (حماية المراقد الشيعية المقدسة)!

على هذا الأساس، كان أول إنجازات (الشاه إسماعيل)، أنه عام 1508 اتجه بجيشه نحو جنوب العراق، وأسقط (الإمارة المشعشعية) الأحوازية ـ العراقية التي كانت تسيطر على الجنوب والأحواز. ثم بعدها اتجه إلى (بغداد). قامت جيوشه بارتكاب مذابح بحق أهل السنة وتخريب مقابر (أبي حنيفة النعمان) و(عبد القادر الجيلاني). بقي الإيرانيون في العراق نحو 26 عاماً (1509م ـ 1534م)، إلى أن طردهم السلطان سليمان القانوني عام 1530م. ثم عام 1623م احتل الصفويون بغداد مرة أخرى في عهد الشاه عباس الكبير، وحررها السلطان مراد الرابع عام 1638م.

هكذا استمرت السلطة الصفوية وكل الحكومات التي أعقبتها في الضغط على العراق، فقام (الشاه طهماسب الأول) بتكرار الجرائم، ثم عاد الصفويون بقيادة (الشاه عباس الأول) في سنة 1624 وارتكبوا المجازر، ثم قام (نادر شاه) بغزو العراق مرتين (أعوام 1733 و1744).

---

(14) ـ عن قوميات إيران:
الفرس» (بين 51% و65%). الأذربيجانيون (16 ـ 25%، ومعهم التركمان حوالي 2%)، الأكراد (7 ـ 10%)، اللور (حوالي 7%)، مازانداري وجيلاك (حوالي 7%)، العرب (2 ـ 3%)، البلوش (2%).
ليست هنالك إحصاءات رسمية، ولكن هنالك بحوث أجنبية:
ـ مكتبة الكونجرس: «ملف تعريف الدولة: إيران/ قسم البحوث الفيدرالية» ـ 20 نوفمبر 2011 ـ ص5.
ـ وكالة المخابرات المركزية/ كتاب حقائق العالم (إيران) 3 فبراير 2012.

العشق الايراني للعراق!

((نحن سائرون حالاً على رأس جيشنا المظفر لتتنسم هواء سهول بغداد العليل، ولنستريح في ظلّ أسوارها...)) (نادر شاه) أثناء غزو العراق عام 1733 [15].

لكن عشق الإيرانيين لسهول بغداد، كلف العراقيين حصاراً وحشياً يفوق الخيال دام سبعة أشهر، جعلهم ـ رجالاً ونساء وأطفالاً ـ يموتون جوعاً بعشرات الآلاف تحت مرأى الجيش الإيراني العاشق! وبعد عشر سنوات كرر هذا الشاه محاولته العشقية عبر حصار الموصل الذي دام 42 يوماً مستخدماً 200 مدفع أطلقت 40 ألف قنبلة على السكان الأبرياء تعبيراً عن حبّ الإيرانيين لهم[16]!

الدولة العثمانية

الجيش الانكشاري الذي كان اساس الجيش العثماني بين 1363 و1826 ويتكون من اطفال مسيحيين(اسرى او مباعون من اهاليهم) يتم تربيتهم عسكريا وعلى عقيدة التصوف البكتاشي العلوي

تعود بدايات تأسيسها الى (عثمان الأول بن أرطغرل: حكم 1299 ـ 1324م) الذي كان يعمل لصالح (السلاجقة الاتراك). نشأت الدولة العُثمانيَّة بدايةً كإمارة عند حُدود الدولة البيزنيطية (الاناضول) وتعمل في خدمة سلطنة سلاجقة الروم الذين يحاربون البيزنط. بعد نهاية السلاجقة على يد المغول، تمكنت (الإمارة العُثمانيَّة) في

(15) ـ عن مجازر إيران في العراق بحجة التشيع، طالع:
ـ لمحات اجتماعية من تاريخ العراق: علي الوردي ـ جزء 1ـ ص113.
(16)ـ نفس المصدر: ص128.

عام (1299) من اعلان استقلالها والسيطرة على باقي الامارات التركمانية المجاورة. خلال قرنين استمر العثمانيون بالسيطرة على عموم الاناضول والبلقان. أخيراً عام 1453 تمكن (محمد الفاتح) من فتح (القسطنطينية ـ اسطنبول) العاصمة البيزنطية والمسيحية المقدسة[17].

عام 1514 انتصر العثمانيون على الصفويين في (معركة جالديران)، واحتلوا عاصمتهم (تبريز)، لكن الشاه إسماعيل تمكن من الهرب. بعدها ترسخت زعامة العثمانيين للشرق الأوسط. رغم ذلك استمر الصفويون باحتلال العراق نحو 26 عاماً حتى طردهم السلطان سليمان القانوني عام 1530م.

هكذا هيمن العثمانيون على العراق لحوالي أربعة قرون، حتى الاحتلال الإنكليزي عام 1917. تخللت هذه القرون الكثير من الحروب الكبرى والصغرى، الداخلية والخارجية، ومحورها التنافس الإيراني ـ العثماني.

بعد احتلال العراق قام السلطان (سليمان القانوني) بالاعتراف بالإدارة المحلية، وتوسيع التجارة، وتحسنت الظروف المعيشية والاقتصادية، وشهدت بعض المدن وخاصة بغداد بعض التوسع وظهور أبنية جديدة. تم تقسيم ادارة العراق إلى ثلاث ولايات مركزية هي: (الموصل وبغداد والبصرة)، وكانت (ولاية الموصل) في بعض الفترات تنقسم الى (ولاية شهرزور: السليمانية وكركوك) الكائنة شرق دجلة. بالإضافة إلى ولاية (الأحساء) شمال شرق السعودية حالياً، المرتبطة بالبصرة، وتضم عموماً مناطق الخليج العربي.

هنالك نقطة مهمة جداً يجب توضيحها: طيلة الفترة العثمانية كان (والي بغداد) هو الحاكم الفعلي لكل العراق: بغداد والموصل والبصرة. وقد ظلت المناطق الكردية الحالية دائماً مرتبطة بالإدارة العراقية. مع العلم إن هنالك الكثير من الإمارات ذات الحكم الذاتي التي قامت في أنحاء العراق، مثل (المنتفق) في الجنوب، و (الجليلي) في الموصل، و (الآفرايب) في البصرة، و (البابان) في السليمانية، لكن هذه الإمارات ظلت تابعة بصورة وأخرى للإدارة العراقية العثمانية.

(17) ـ حسب التاريخ الرسمي التركي، إن الدولة العثمانية استمرت 600 عام، منذ قيام دولة عثمان عام 1299م حتى عام 1923، واعلان (كمال اتاتورك) نهايتها الرسمية.

فترة المماليك (1749.1831)

اول محاولة عراقية لرفض السيطرة العثمانية العسكرية المباشرة

وهم مجموعة ولاة حكموا بغداد وعموم العراق، أصلهم من بلدان القفقاس وخصوصاً من (بلاد الكرج ـ جورجيا الحالية). كان من المعتاد أن تبعث إسطنبول الولاة الذين تختارهم وهم عموماً أتراك وبلقان (ألبان ومقدون وبوسنياك). لكن في هذه الفترة كان الأمر مختلفاً، حيث كان يتفق مماليك وأعيان العراق فيما بينهم ويقترحون الأقوى بينهم ويبعثون العرائض إلى السلطان العثماني لكي يوافق على تعيينه. علماً بأن هؤلاء المماليك، عكس ما قد يظن، ما كانوا عبيداً، بل كانوا مثل (الجيش الانكشاري) العثماني، يتم شراؤهم[18] من القفقاس من قبل والي (بغداد) وجلبهم وهم أطفال لكي يوضعوا في معسكرات لتدريبهم وتنشئتهم عسكرياً ودينياً، وكان الكثير من هؤلاء من عوائل مسيحية جورجية (كرجية) تضطر إلى أن تبيع أبناءها بسبب الفقر وعلى أمل أن يحققوا مستقبلاً مقبولاً في الجيوش العثمانية.

(18) ـ يبدوا أنه في تلك الحقبة كانت الكثير من العوائل الفقيرة تبيع أطفالها كي تنقذهم من الموت جوعاً، وأيضاً بأمل أن يتمكنوا من تحقيق بعض الجاه والمال في مستقبلهم، وهذا ما حصل للكثيرين.
إن هذه الحالة ليست مختلفة كثيراً عن الحالة السائدة في العالم عبر التاريخ وحتى في عصرنا الحالي، أن تترك العوائل الفقيرة بناتها الصغيرات يعشن في بيوت الاغنياء كخادمات (عبدات)!

إن أول من قام بتكوين جيش المماليك في العراق هو الوالي العثماني (حسن باشا)، لكي يتم الاستغناء عن (الانكشارية العثمانيين) الذين أصبحوا غير مرغوب بهم، عراقياً وعثمانياً. وعندما تولى الحكم من بعده ابنه (أحمد باشا) استمر بجلبهم من أسواق (تفليس ـ عاصمة جورجيا الحالية) حتى إنهم بعد وفاته تمكنوا أن يفرضوا إرادتهم على الدولة العثمانية وينصّبوا أحدهم وهو (سليمان باشا) عام 1749م. وكان يلقب (أبو ليلة) لأنه كان يتجول ليلاً لتفقد أحوال الناس. بلغت دولة المماليك في العراق أوج قوتها في عهد (سليمان باشا الكبير) والذي دام حكمه 22 عاماً ما بين عامي 1780 إلى عام 1802 وقد سمّي عهده بالعصر الذهبي لدولة المماليك في العراق. انتهت فترة المماليك بعد حوالي قرن بعد عزل آخر ولاتهم (داود باشا) سنة 1831 (سنفصل تجربته الاستقلالية بعد قليل).

معاهدة أرضروم والتخلي عن (الاحواز) وضفة شط العرب!

وهي من أكبر الضربات التي وجهتها إيران إلى العراق، إذ نجحت بإجبار الدولة العثمانية على التنازل عن أجزاء مهمة من جنوب شرق العراق: الأحواز وأجزاء من شط العرب[19]، بالإضافة إلى (مدينة حلوان: محاذية لديالى)[20]. تم ذلك بعد توقيع (معاهدتي أرضروم الأولى والثانية) عامي 1823م و1847م؛ لإنهاء الخلافات الحدودية. وقد تنازل العثمانيون عن هذه الأجزاء (الشيعية) لأسباب طائفية، لتقليل الوجود الشيعي في العراق. فاستولت إيران على مدينة وميناء المحمرة «خرم شهر» وجزيرة عبدان، وكذلك الأراضي التي هي على الضفة الشرقية لشط العرب.

الميول الاستقلالية العراقية

كما هو حال العراق دائماً، فإن أية دولة مهما كانت وطنية أو أجنبية، فإنها تواجه صعوبتين كبيرتين تتطلبان الكثير من الحنكة والقوة للتغلب عليهما:

1 ـ التنوع الكبير في المجتمع العراقي، دينياً وطائفياً وعرقياً وعشائرياً ومناطقياً، بل

(19) ـ رغم تنازل العثمانيين عن (الأحواز) إلاّ أنها لم تخضع للإيرانيين، بسبب مقاومة الإمارة المشعشعية العربية، التي بقيت حتى سنة 1724م، حيث قامت دولة أحوازية ثانية ـ هي إمارة بني كعب (أو الإمارة الكعبية) ـ اعترفت بها الدولتان الصفوية والعثمانية.

(20)ـ حلوان، هو اسم لمدينة قديمة في منطقة جبال زاغاروس وهي اليوم في غرب إيران قريباً من كرمنشاه ونهر ديالى، وهي مذكورة منذ عهد السومريين ويعتقد أن اسمها (علون: العالية) ثم أصبحت تابعة للكنيسة السريانية العراقية ما بين القرنين الثامن والثاني عشر، وقد فتحها المسلمون سنة 16هـ/ 638م، ودخلها هولاكو سنة 655هـ/ 1257م.

إن هذا التنوع اشتد تناقضه في الطبقة الحاكمة نفسها بين العثمانيين الأتراك والانكشارية البلقان (ألبان ومقدون وبوسنياك) والمماليك الجورجيين (الكرج).

2ـ نفوذ ومطامع الدول المحيطة، حيث برز تأثير (قبائل نجد) (في السعودية حالياً) وغزوات الوهابيين المستمرة. بالاضافة إلى النفوذ الإيراني (الصفوي ثم القاجاري) واجتياحاته العسكرية بحجة حماية المراقد الشيعية المقدسة، بمواجهة الدولة العثمانية الحاكمة.

لهذا فإنه كان من الطبيعي أن تشتد الميول الاستقلالية ضد العثمانيين لدى جميع الأطراف العراقية (شيوخ العشائر)، وكذلك الأطراف العثمانية الحاكمة نفسها (الولاة وقادة الجيش بمختلف أصولهم).

ويمكن ذكر النماذج التالية المعبرة عن هذه الميول الاستقلالية، حسب التسلسل الزمني:

المحاولة الفيلية لاستقلال العراق (1524ـ 1530)

تمكن (ذو الفقار) زعيم قبيلة موصلو الكلهورية الفيلية الذي كان والياً على (بغداد) من قبل الصفويين، من إعلان تمرده وتكوين دولة عراقية مستقلة. حاول أن يستعين بالسلطان العثماني ضد الصفويين، لكن (الشاه طهماسب الأول) دخل بغداد وتمكن من شراء إخوة (الأمير ذي الفقار) ودفعهم لقتله. بعد أربعة أعوام تمكن السلطان العثماني سليمان الأول من احتلال بغداد عام 1534 وطرد الصفويين. لكنهم قاموا مرة ثانية باحتلال بغداد بين 1623ـ 1638، ثم نجح العثمانيون بطردهم مرة أخرى[21].

(21) ـ عن حكم الفيلي: علي ثويني في مجلة ميزوبوتاميا العدد 4 عام 2005.
ـ د. إعتماد يوسف أحمد القصيري ـ مجلة سومر: (النقود التي ضربت في العراق خلال الحكم العثماني) ذكرت: (أن النقود التي ضربت في العراق وفي بغداد بالتحديد خلال الحكم العثماني كان منها ما أشير في أحدها إلى الفترة التي حكم فيها ذو الفقار، فقد ضربت مسكوكة باسم السلطان العثماني سليمان القانوني عام 933 هـ/ 1526م وهذه المسكوكة موجودة في المتحف العراقي تحت رقم 9030 في سجل المسكوكات وقد ثبت الرقم سبعة على المسكوكة، وهي عدد سنوات حكم السلطان سليمان عند دخوله إلى بغداد).

الامارة المشعشعية في الأحواز وجنوب العراق (1436 ـ 1724م)

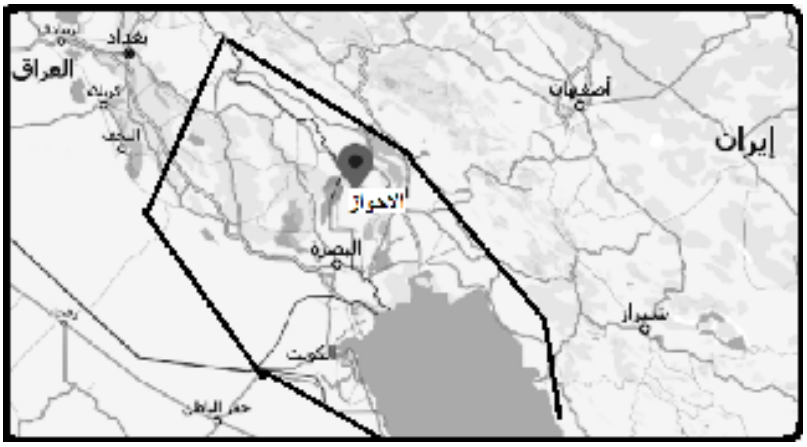

قامت هذه الدولة على يد الأمير الأحوازي (محمد بن فلاح بن هبة الله) الذي اتخذ الحويزة عاصمة له، وقد حافظت هذه الدولة على استقلالها رغم ما تعرضت له من محاولات الغزو على يد الإيرانيين والعثمانيين. كانت النقود تضرب باسم المشعشعين في مدينتي تستر ودسبول (قنطرة القلعة ـ دزفول حالياً) الأحوازيتين عام 914هـ / 1516م، وعندما حاول الصفويون احتلال (بغداد) وطرد العثمانيين، طلبوا المساعدة العسكرية من (منصور) الحاكم المشعشعي آنذاك، الذي رفض تقديم أية مساعدات. واتسعت الدولة المشعشعية حتى شملت مناطق واسعة من جنوب العراق بما فيها (البصرة). خاضت الدولة المشعشعية عدة معارك ضد الإيرانيين كان الانتصار حليفهم فيها. وحتى سقوط الدولة المشعشعية علي يد الشاه إسماعيل الصفوي عام 1516، حيث سميت الأحواز بعد ذلك ـ بعربستان ـ تحكمها الأسرة المشعشعية في إطار الاستقلال الداخلي تحت سلطة الحكم الصفوي.

إمارة بني كعب في الأحواز وجنوب العراق (1690 ـ 1925)

الشيخ خزعل الكعبي بجانب ملك العراق فيصل الثاني. نتيجة الضغط الانكليزي اضطر فيصل للتنازل عن الاحواز والسكوت عن اغتصابها من ايران في 1925 واعتقال اميرها خزعل

وهي إمارة لقبيلة (كعب البوناصر) المنتشرة في الاحواز وجنوب العراق. قامت دولتهم عام 1690 الى جوار إمارة المشعشعين. حكمت مناطق واسعة من الأحواز حكماً مستقلاً عن كل من الدولتين الفارسية والعثمانية، وكان مركز هذه الإمارة مدينة الفلاحية بالقرب من مدينة الدورق التاريخية وقد دخلت هذه الإمارة في حروب عديدة مع الفرس والأتراك والبريطانيين. وتمكن آخر أمرائها (الشيخ خزعل) من إخضاع كامل الأحواز تحت سلطته بعد إسقاط إمارة المشعشعين التي استمرت قرابة خمسة قرون متوالية قضتها بين استقلال كامل واستقلال ذاتي. ولكنها انتهت مع الغزو الايراني عام 1925 بتواطؤ من المملكة العراقية وبضغط بريطاني، من أجل حرمان العراق من شواطئه البحرية والثروة النفطية، وكذلك للتخلص من خطر زيادة نسبة الشيعة.

إمارة آفراسياب البصرية (1595. 1668)

هي أسرة أحد كبار ملاّكي الأراضي من العرب ويدعى (الباشا آفراسياب)، وكان يشغل منصب قائد القوات الأهلية (الميليشيات) التابعة لحاكم البصرة العثماني (أيوب باشا). فاستغل آفراسياب حالة الضعف والفوضى وفرض على الوالي بيع منصبه بثمانية أكياس دراهم رومية، ثم صدر فرمان من السلطان يؤيد ذلك، وبموجب

شهادة ـ وكان يملك جيشاً من 3 آلاف محارب عراقي (تركمان وأكراد وعرب) ـ قام بإصلاحات كثيرة في مجال التجارة والتعاون مع القوى الأوربية الهولندية والبرتغالية، وتمكنت هذه الدولة شبه المستقلة من التمدد نحو الأحواز والسيطرة على معظم سواحل الخليج وبالذات منطقة الأحساء (السعودية حالياً)، ولكن هجمات الإيرانيين والعثمانيين والعشائر البدوية استنزفتها وأدت إلى نهايتها على يد الجيش العثماني بقيادة والي بغداد.

إمارة المنتفق 1530 ـ 1918

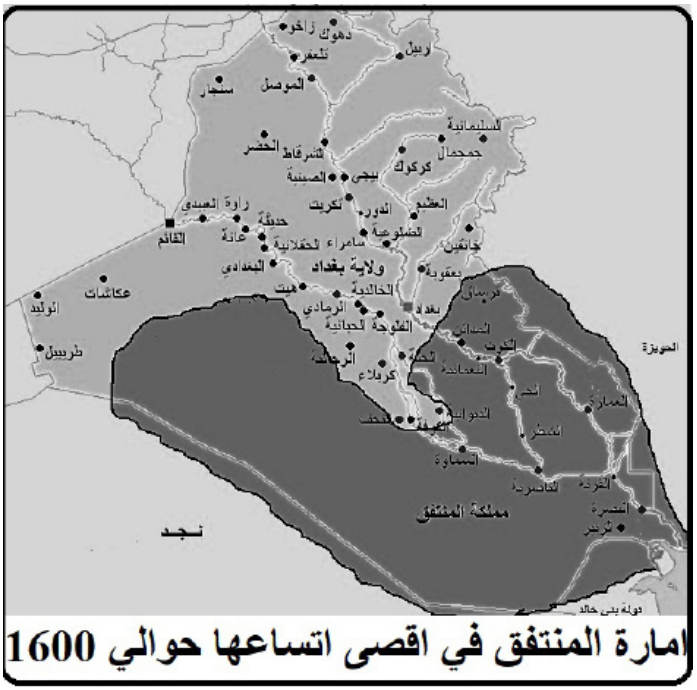

امارة المنتفق في اقصى اتساعها حوالي 1600

وهي مجموعة عشائر جنوبية عراقية اتَّحدت من أجل حماية مصالحها وفرضوا على العثمانيين القبول بنوع من الحكم الذاتي، وخصوصاً فيما يخص عشائرهم، وضمنت مختلف السكان الشيعة والسنّة وغير المسلمين. أسسها عام 1530 (الشريف حسن بن مانع) (جد أسرة آل شبيب الأشراف التي عرفت لاحقاً بـ: آل سعدون)، وقد بلغ نفوذهم أقصى اتساعه في عهد (الأمير مانع بن شبيب) في الربع الأخير من القرن السابع عشر، انتهت في الحرب العالمية الأولى.

عائلة الجليلي الموصلية

يعود أصل العائلة إلى جدهم الأكبر (عبد الجليل) الذي كان في الأصل مسيحياً موصلياً، وبعد اعتناق الإسلام من قبل ابنه (إسماعيل) نال حظوة الأتراك وترقى حتى أصبح والياً على الموصل سنة 1138هـ (1726م)، ثم رسَّخ ابنه (حسين الجليلي) سيطرة العائلة بعد أن تمكن من مواجهة حصار الموصل من قبل (نادر شاه) الصفوي سنة 1743. مع الزمن زاد نفوذهم وأصبح بعض أفرادها ولاة لولايات عثمانية مجاورة، لكن تمت إزاحة العائلة عن الحكم سنة 1834.

داود باشا.. الزعيم الوطني العراقي المنسي (1817ـ 1831)

هو آخر ولاة المماليك الذين حكموا العراق. ولد في (تفليس ـ جورجيا) عام 1767، من عائلة مسيحية، وقد باعه أهله وجُلب إلى (بغداد) وعمره حوالي ستة أعوام. وقد تعلّم العربية والتركية والفارسية، واعتنق الإسلام. كذلك تعلّم معارف البغداديين، وكتب الشعر، ثم أصبح مساعداً لوالي بغداد المملوكي (سليمان باشا) وتزوج من ابنته. وعندما أصبح قائداً للجيش عام 1814 شن الحملات لتأديب القبائل ومنعها من الغزو والتخريب خصوصاً في أنحاء الفرات. وحدّ من نفوذ المنتفق وشيخها حمود. ووضع العسكر لحماية زوّار كربلاء من اعتداءات البدو والوهابيين. ومن ثم أصبح والياً بعد وفاة صهره. اشتهر خصوصاً بنزعته الاستقلالية العراقية، حيث كان متأثراً بتجربة والي مصر المقدوني الألباني (محمد علي باشا) الذي سبقه ببضع سنوات بإعلانه استقلال مصر عن الدولة العثمانية. فاعلن داود رفضه الخضوع للسلطان العثماني (محمود الثاني) ودفع الأموال له[22].

وقام بتشييد المعاهد العلمية ومصانع النسيج والمدارس والجوامع وقرّب الأدباء والمثقفين، فأصدر وقتها المؤرخ (عثمان بن سند البصري) كتاباً عن هذا الوالي الوطني أسماه: «مطالع السعود بطيب أخبار الوالي داود». كذلك قام بتشجيع التجارة والزراعة، واعتنى بالري، واهتم خصوصاً بالجيش واستقدم الخبراء الأوربيين منهم الضابط الفرنسي (مسيو ديفو) لتحديث الجيش، والصناعة العسكرية. كذلك أسس أول صحيفة في بغداد باسم (جرنال العراق) باللغتين العربية والتركية. لكنه كان في نفس الوقت قاسياً جداً في فرض الضرائب على التجار والعشائر، وأراد أن يفرض هيبة الدولة، فحارب العشائر العراقية المتمردة وأخضعها، مثل عشائر الديلم والمنتفق، لكنه واجه منذ بداية حكمه مشكلة إمارة بابان الكردية في السليمانية ومحاولات الاجتياح الإيرانية التي كان يحكمها الترك القاجاريون.

وقد انتهى حكم (داود باشا) بسبب انشقاق حلفائه من الجماعات العراقية المختلفة، عشائرية ودينية، فاضطر الى الاستسلام لجيش (السلطان محمود الثاني) عام 1830.

أرسله السلطان شيخاً على الحرم النبوي في المدينة، وقام بعدة اصلاحات هناك حتى توفي عام 1851.

(22) ـ عن النفوذ البريطاني، راجع دراسة الدكتور علي مدلول الوائلي عن: رسالته: (شركة لنج للملاحة 1861 ـ 1914 ـ دراسة تاريخية).

التوافق البريطاني ـ الايراني ـ التركي على محاربة الاستقلالية العراقية!

لم يعانِ العراق وعموم الشرق الأوسط فقط من الصراع بين الإيرانيين والعثمانيين، بل دخل طرف جديد أكثر شراسة وحنكة وحقداً وخطراً مستقبلياً، والمتمثل بالقوى الأوربية الصاعدة والطامحة للسيطرة، وبالذات الإنكليز والفرنسيين والالمان، المتنافسين بينهم الى حد الدم والتدمير. واستفحل هذا الدور والصراع الاوربي في المنطقة وفي العراق، خصوصاً بعد غزو (نابليون) لمصر (1798 ـ 1801)، ومشروعه للسيطرة على الشام والعراق لاستخدام نهريه ثم الخليج، من أجل بلوغ الهند.

لهذا سارع الإنكليز بتركيز وجودهم الدبلوماسي والمؤامراتي في (بغداد) من خلال تعيين مقيم سياسيّ دائميّ (هارفورد جونز ـ Harford Jones) عام 1789 ليرأس بعثتهم، وخُصص لحمايته حرس من الهنود، وكان ينشط لتعزيز النفوذ البريطاني ومنع النفوذ الفرنسي، وتوسيع نفوذ (شركة الهند الشرقية) البريطانية، وإعداد الدراسات عن أحوال العراق الاقتصادية. ازداد هذا النشاط مع تعيين المقيم (كلوديوس جيمس ريج C.J.Rich: 1808 ـ 1821)، وجهد لمراقبة الوالي المملوكي (سليمان باشا الصغير 1808 ـ 1810) بسبب تقاربه مع الفرنسيين. وخلال مدة ثلاث عشرة سنة من وجود هذا المقيم أصبح المقر البريطاني ملتقى كبار الموظفين والأشراف وداراً للبحث التنقيبي عن الآثار، وكذلك الحصول على امتيازات كثيرة منها منع هروب الملاحين العاملين مع البريطانيين.

أما بعد مجيء الوالي (داود باشا والي بغداد 1816 ـ 1831) فإن ميوله الاستقلالية وطموحه بتكوين دولة عراقية مستقلة وقوية مثلما فعل (محمد علي) في (مصر)، قد بثت الخوف لدى البريطانيين، وخصوصاً أنه طالب بمشاركة العراق في النشاط التجاري مع الهند والاستفادة من الأرباح. فقد احتكر (داود باشا) شراء المنتجات العراقية وتصديرها، كما امتلك السفن، والأخطر من هذا أنه حاول تصفية نظام الامتيازات للبريطانيين، الذي كان يشكل عبئاً ثقيلاً على كاهل التجار المحليين، وبلغت المخاطر أشدها عندما شرع الباشوات يقولون بأنه ليس للبريطانيين حقوق معترف بها في بغداد، وإنه في المستقبل ستجمع العوائد عن البضائع البريطانية بضعف النسبة السابقة[23].

(23) ـ عن الوالي داود باشا، طالع:

لذلك حدثت أزمة كبرى كادت أن تؤدي إلى حرب عراقية ـ إنكليزية، عندما قرر (الوالي داود) حجز ممثل بريطانيا (ريج) ومنعه من السفر؛ لأنه قرر الانسحاب من العراق وإيقاف التجارة بين العراق والهند، وقد بعث حاكم الهند البريطاني رسالة تهديد إلى الوالي، باستخدام القوة البحرية الإنكليزية، وراحت سفنهم العسكرية تجوب الأنهر العراقية وقطعت طرق التجارة النهرية الداخلية. اضطر أخيراً (داود باشا) إلى القبول بوثيقة التراضي التي قدمتها بريطانيا وتضمنت اثني عشر بنداً، من أهمها الالتزام بنصوص الامتيازات البريطانية وإعادة السفن البريطانية، وأن لا تجبى أي ضريبة على السفن البريطانية كعوائد مرور بين البصرة وبغداد فيما عدا ضريبة واحدة حددت بـ 3%، وبعد أن هدأت مخاوف بريطانيا من الخطر الفرنسي، بدأ (خطر روسيا) في مد نفوذها في العراق لبلوغ الهند، وذلك بعد الانتصارات التي أحرزتها روسيا عام 1813 على إيران والدولة العثمانية[24].

بالتدريج تمكنت مؤامرات القوى الدولية المتنافسة (الإيرانية والعثمانية والبريطانية) من دفع بعض العشائر إلى التمرد. فقد استطاعت إيران أن تبث الخلاف داخل (عائلة بابان) الكردية الحاكمة للسليمانية، وانقسم الإخوة بين حليف للإيرانيين وحليف للعثمانيين، وحدثت الحرب عام 1821 بين جيش (داود باشا) وجيش السليمانية المدعوم بجيش (الشاهزادة حاكم كرمنشاه الإيراني)، ثم تقدم جيش (الشاهزادة) نحو بغداد ليحتلها، لكن مرض الهيضة قد أجبره على التراجع، وتكررت المحاولة من قبل ابنه (حسين ميرزا)، وكذلك فشلت بسبب انتشار الهيضة[25]، كذلك حصول محاولة فاشلة لاغتيال (داود) من قبل السلطان العثماني. بالإضافة إلى حدوث الفيضانات والأمراض، كل هذه المشاكل أضعفت (داود باشا) فلم يتمكن جيشه من مواجهة الغزو العثماني عام 1831 بسبب انتشار الطاعون في العراق، وتحالف بعض العشائر

ـ داود باشا موسوعة الأعلام، خير الدين الزركلي، 1980.
«داود باشا».. الموسوعة العربية، هيئة الموسوعة العربية، سورية ـ دمشق.
(24) ـ المصدر السابق رقم 20.
(25) ـ عن حروب العشائر الكردية وغزوات القاجاريين:
ـ علي الوردي ج: 1، ص: 253.
ـ ستيفن همسلي لونكريك (أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث) ـ بغداد 1962 ـ ص245.

مع الغزاة، ولكن البغداديين مع المماليك قرروا مواجهة الغزو، وأخيراً بعد حصار دام أشهراً وانتشار المجاعة والأمراض، اضطر البغداديون إلى فتح أبواب المدينة، لقاء الوعد بمعاملة (داود باشا) بالحسنى وعدم معاقبته.

وفعلاً تم نقله خارج العراق ليتولى عدة مناصب في الدولة حتى توفي في مكة عام 1851 بعد أن تفرغ هناك للعلم والتدريس. من بعده انتهى حكم المماليك في العراق، بعد أن غدر بهم الوالي العثماني الجديد وذبح غالبية قادتهم وأعيانهم أثناء وليمة على شرفهم.

الاتفاقيات العثمانية ـ الفارسية، لترسيم الحدود وتشتمل على حدود العراق

بين 1555 حتى 1918، وقعت الدولتان العثمانية والفارسية على ما لا يقل عن 18 معاهدة تتعلق بالخلافات الحدودية وبالذات حول حدود ايران مع العراق. ودائماً كانت ايران هي التي تنقض الاتفاقيات وتهاجم العراق على أمل استلابه من العثمانيين. هذه أهمها:

1555	معاهدة اماسية: تخطيط الحدود على (منطقة شهرزور) شمال العراق.[26]
1590	معاهدة فرهاد باشا: الاعتراف بسيادة العراق على ولاية شهرزور ولورستان.
1639	معاهدة زهاو: اقرت ان تكون ارمينيا لفارس، والعراق للعثمانيين.
1727	معاهدة اشرف: الاعتراف بسيادة الدولة العثمانية على امارة المحمرة: الاحواز.
1731	معاهدة أحمد باشا: الاقرار بمعاهدة زهاب ـ نقضتها فارس وطالبت بالاراضي العراقية
1746	معاهدة كرون لحسن الجوار: ألغتها فارس وهاجمت العراق من الشمال والوسط.

(26) منطقة (شهرزور) عموماً تعني القسم الشمالي الشرقي من العراق والمحاذي للحدود مع ايران. ومن ضمنه المناطق الكردية الحالية. وقد تغيرت كثيراً حدودها الادارية وضمت أحياناً كركوك والموصل. وأخيراً مع اصلاحات الوالي (مدحت باشا: والي العراق : 1869–1872)) فإن (ولاية الموصل) قد ضمت (الالوية) التالية:
1 ـ لواء الموصل. وأقضيته: مركز الموصل– العمادية – زاخو – سنجار – دهوك – عقرة
2 ـ لواء كركوك ، ويسمى لواء شهرزور . وأقضيته: – راوندوز – أربيل – كفري (الصلاحية) – كويسنجق – رانية
3 ـ لواء السليمانية . وأقضيته: – كل عنبر – بازيان – شهربازار – قرة داغ – مركة – الجاف
طالع دراسات:
ـ مدحت باشا واصلاحاته في العراق (4–4) ـ صلاح عبد الرزاق
ـ ولاية شهرزول– كركوك في العهد العثماني، إشكاليات التاريخ والتنظيم الإداري/ أ.د. فاضل بيات
ملاحظة: الاتراك يطلقون عليها: شهرزول بدلاً من شهرزور
ـ الهوية التركمانية لكركوك وما جاورها.. في ماضيها وحاضرها/عوني عمر لطفي

1818	عقد الصلح بين داود باشا والي بغداد وفارس: سرعان ما نقضته بهجومها على السليمانية باتجاه كركوك.
1823	معاهدة ارضروم الاولى: ألغتها فارس بشنها الحرب سنة 1840 باتجاه السليمانية وإمارة المحمرة: الأحواز
1847	معاهدة ارضروم الثانية: تنازلت الدولة العثمانية عن الأحواز.لكن امارة (بني كعب) حافظت على استقلال الاحواز.
1911	برتوكول طهران: تشكيل لجنة تخطيط الحدود ألغاها الفرس.

الوالي المصلح مدحت باشا (1869 ـ 1872)

قام بدور كبير في محاولة نقل العراق إلى النهضة الحضارية السائدة في أوربا. فقد أسس (التراموای ـ قاطرة تقودها الجياد) الكاظمية، وحديقة عامة، ونظام إسالة، ومستشفى، ومصانع نسيج، ومصرف توفير، وبلَّطَ وأنار الطرق، وأقام الجسر الوحيد على نهر دجلة، وفتح العديد من المدارس الجديدة، وطبع العديد من الكتب المدرسية الحديثة بالمطبعة التي أنشأها. كما تأسست في عهده أول صحيفة في العراق، باسم الزوراء، وطوَّر خدمات الزوارق البخارية المنتظمة في دجلة والفرات كما طوَّر الملاحة في الخليج، وأنشأ معملاً لتصليح السفن في البصرة، وبدأ عمليات الحفر في شط العرب، وأدخل بعض التحسينات على نظام الري، ووسَّع إنتاج التمور في الجنوب، وأنشأ المجالس البلدية والإدارية وفق قانون الولايات الجديد وفرض التجنيد الإلزامي. كذلك عمل على تمليك الأراضي (خصوصاً للشيوخ) وتشجيع توطين القبائل الرعوية شبه المتنقلة. لكن يسجل ضده خطيئة كبيرة لم يقصد بها الإساءة إلى العراق: بكل سذاجة أمر بتدمير القسم المتبقي من سور بغداد العباسي واستخدام الطابوق في التعمير!!

إعلان الدستور العثماني، وانطلاق حركة التغريب الاوربية!

جماعة (الاتحاد والترقي: تركيا الفتاة)
يعلنون سلطتهم ودستورهم 1908

شكل إعلان الدستور العثماني في 23 تموز 1908 بقيادة (حركة الاتحاد والترقي العثمانية) المتداخلة مع (الحركة الماسونية)[27] تغييراً جذرياً كبيراً في عموم الدولة العثمانية ومنها العراق. فهو يعني السيطرة الرسمية للنخبة العثمانية الاصلاحية على الطريقة الاوربية، والتي بلغت أوجها فيما بعد بقيام (جمهورية كمال اتاتورك 1923) ونهاية الخلافة العثمانية.

بالنسبة للعراق[28] فإن (الدستور العثماني) قد أدى الى انتشار مظاهر جديدة، مثل كثرة الملاهي وتعدد الصحف، وقامت جمعية الاتحاد والترقي بفتح مقار لها في بغداد، وكان

(27) ـ بدأ نشاط الماسونية في تركيا أولاً بين الجاليات الاوربية في اسطنبول، ثم تأسس أول محفل ماسوني عثماني في (حلب: محفل الاسكندرونة) ضم بين أعضائه 28 تركياً أبرزهم (شلبي زادة سعيد شلبي)، والذي أصبح الصدر الأعظم (رئيس الوزراء) عام 1755.

(28) ـ بالنسبة للعراق فان الماسونية كانت بالاساس موجودة منذ عام 1800 بين المقيمين الاوربيين خصوصاً في البصرة. الثابت وثائقياً أن أول محفل ماسوني رسمي تأسس في البصرة سنة 1918 هو محفل (مابين النهرين) على يد الضباط والموظفين الذين دخلوا العراق مع الاحتلال البريطاني.
طالع:
ـ كتاب: موسوعة ثورة 14 تموز 1958 / خليل ابراهيم حسين/ في الجزء الاول / بغداد 1987
ـ الماسونية العربية / ذوقان قرقوط / بحث منشور في مجلة «قضايا عربية» العدد 9 ـ كانون الثاني 1975

من أعضائها الشاعران (الزهاوي والرصافي)، وانقسم العراقيون وخصوصاً في بغداد إلى أنصار التجديد والمحافظين المتدينين. في خريف 1908 جرى انتخاب المبعوثين (النواب) في سائر الولايات العثمانية، وقد فاز من (مدينة بغداد) كل من (إسماعيل حقي بابان: كردي بغدادي) و (علي الآلوسي: عربي مسلم) و (ساسون حسقيل: يهودي). في نيسان من سنة 1909 تم خلع السلطان العثماني عبد الحميد الثاني وتنصيب أخيه محمد رشاد، وقد تفاخرت الصحف العراقية أنَّ من بين الشخصيات العثمانية المهمة التي خلعت السلطان هو العراقي البغدادي (محمود شوكت باشا).

نهاية الحكم العثماني

جمال باشا، آخر والي عثماني قبل الاحتلال الانكليزي، بين زعماء عشائر الحلة

بعد إعلان الحرب العالمية الأولى عام 1914 وتحالف العثمانيين مع الألمان، نزلت القوات البريطانية في رأس خليج البصرة، وفي 22 تشرين ثاني 1914 دخلت هذه القوات البصرة. وأثناء التقدم نحو (بغداد) عانى البريطانيون الهزيمة في منطقة (الكوت) في نيسان 1916، ولكن بعد أن تم إسناد الجيش البريطاني استطاع الدخول إلى بغداد في 11 آذار 1917. وقد تم تشكيل إدارة من البريطانيين والهنود الذين حلّوا محل الموظفين العثمانيين. أما الموصل فقد بقيت في أيدي العثمانيين إلى ما بعد توقيع (اتفاقية مدرس) لنزع السلاح (30 تشرين الأول 1918)، والتي وضعت نهاية للحرب في الشرق الأوسط.

***

المتغيرات السكانية والدينية

الكتائب الحميدية الكردية العثمانية1890-1908 لعبت دورا
في المجازر ضد المسيحيين السريان والارمن وتكريد بلداتهم

في هذه (المرحلة الآسيوية) صحيح أن الجانب (اللغوي والديني) المسيطر (اللغة العربية والإسلام بمذهبيه السني والشيعي) بقي على حاله، لكن يمكن تسجيل متغيرين كبيرين قومياً ودينياً:

1 ـ التراجع الكبير جداً بأعداد المسيحيين ولغتهم السريانية في شمال العراق.

2 ـ تنامي الحضور الكردي الاسلامي وتكريد غالبية المناطق المسيحية السريانية في شمال العراق (وعموم منطقة الجزيرة السورية وجنوب تركيا، ويشمل هذا الانتشار الكردي المسلم أيضاً مناطق المسيحيين الارمن في جنوب شرق تركيا).

التوسع الكردي المسلم وتراجع الوجود السرياني المسيحي!

هذه خارطة المناطق التي تقع الآن في جنوب شرق تركيا ويطلق عليها حاليا:(كردستان تركيا)، كانت حتى اواخر القرن 19 بغالبية مسيحية ارمنية وسريانية. ومنذ اعوام 1500 تحالف العثمانيون مع العشائر الكردية السنيّة المتمردة ضد الدولة الشيعية الايرانية، ، ثم التمدد والسيطرة من اجل حمايتها من الخطرين: الايراني الشيعي والروسي الارمني المسيحي. وعلى الحدود الايرانية العثمانية(لاحظ الدائرة) جرت (معركة جالديران: 1514) الكبرى وكانت انتصارا عظيما للعثمانيين الذين سيطروا على المنطقة وانتزعوا العراق من السيطرة الايرانية الصفوية.

إن شمال العراق الحالي (الموصل وأربيل والسليمانية وكركوك)، أي ما كان يسمى (منطقة آشور، وعاصمتها نينوى)، الذي تحول في المرحلة العربية الإسلامية إلى (منطقة الجزيرة وعاصمتها الموصل)، وتشكل هذه المنطقة القسم الشمالي الأعلى من (نهر دجلة) وما حوله من (جبال زاغاروس) من جهة الشرق و(جبال طوروس) من الشمال حتى جنوب تركيا (ديار بكر وماردين)، ومن الشرق شبه بوادي الجزيرة الممتدة حتى (نهر الفرات) (وتشمل حالياً محافظات الجزيرة السورية). بسبب تنوع التضاريس وكثرة المرتفعات والجبال، فقد تنوعت الأقوام والأديان والمذاهب. حال هذه المنطقة عكس حال (منطقة وسط وجنوب العراق) السهلية المنبسطة بين دجلة والفرات إذ ان غياب الموانع الطبيعية ساعد دائماً على تمازج الأقوام وانصهارها دينياً ولغوياً: (اللغة الأكدية وعقيدة الخصب والنجوم)... ثم (الآرامية السريانية مع المسيحية)... ثم أخيراً (العربية مع الإسلام بمذهبيه السني والشيعي) مع أقليات صابئية ومسيحية و(يهودية حتى عام 1948).

أما شمال العراق فبسبب هذه الموانع الطبيعية، فقد تنوعت فيه دائماً الأقوام والطوائف الدينية والمذهبية. فحالياً فيه اللغات: العربية، والكردية (البهدنانية

والسوريانية والهورمية)، والتركمانية، والسريانية. مع عدة جماعات (دينية ـ أقوامية): اليزيدية، الشبك، الكاكائية، والشبك. الغالبية الساحقة (مسلمون سنّة) فيهم طوائف صوفية نشطة: (قادرية ونقشبندية)، بالإضافة إلى أقليات شيعية مهمة.

بسبب هذه التنوع الأقوامي والديني، والتداخل الجبلي مع الهضبة الإيرانية شرقاً والهضبة الأناضولية التركية شمالاً، فقد ظلت هذه المنطقة في حالة اضطراب دائم وصراعات عرقية ودينية تغذيها وتستفيد منها الدول المجاورة التي أضيف إليها في هذه المرحلة دور الدول الاوربية ومبشريها المسيحيين.

أحوال المسيحيين الناطقين بالسريانية

كما وضحنا أول الفصل، في الفترة الأولى من الاحتلال المغولي كان هنالك نوع من التسامح إزاء المسيحيين في العراق بسبب تأثير زوجة (هولاكو) النسطورية[29]، بحيث إنهم أهدوا قصر الخلافة لِلبطريرك لبناء اسقفية[30]. لكن بعد أكثر من قرن، أي عام 1393، جاء (تيمورلنك) الذي كان يدَّعي زوراً الإسلام السلفي، فمارس الوحشية والقتل ضد المسيحيين[31]. منذ هذه الحقبة بدأ العد التناقصي للمسيحيين في العراق،

(29) ـ عن زوجة هولاكو المسيحية:

A history of the Crusades», Steven Runciman, p.306.

(30) ـ عن دور المسيحيين في بغداد:

ـ لمحات من تاريخ الكنيسة السُريانيَّة الشرقيَّة: أسعد صوما (الجزء التاسع).

(31) ـ قيل إن تيمورلنك قد قتل 70 ألف مسيحي في تكريت و90 ألفاً آخرين في بغداد:

ـ الآشوريون والأكراد والعثمانيون:هرمز أبونا. أمهيرست، نيويورك (بالإنكليزية: Aboona, H. (2008). Assyrians, Kurds, and Ottomans: Intercommunal relations on the periphery of the Ottoman Empire. Amherst, NY: Cambria Press).

إذ توالت الحروب والاحتلالات من قبل القبائل الآسيوية التي كلها ادعت الإسلام المتزمت لتبرير صراعاتها. فكانوا يتخذون من المسيحيين حجة لممارسة تعصبهم. فاضطر غالبية المسيحيين في عموم العراق إلى اعتناق الإسلام. أقلية منهم صمدت بالاستعانة بالمسلمين في الاحياء الشعبية في بغداد والبصرة، ولكن الغالبية منهم انحصروا في البلدات والقرى النائية في سهل نينوى والجبال المحيطة[32].

معركة جالديران: 1514، والنقلة الكبرى لبروز الأكراد

طبعاً نحن ضد الفكرة التي يشيعها بعض المتعصبين ضد الأكراد بأنه لم يكن لهم أي حضور في شمال العراق وعموم منطقة الجزيرة، وأنهم غرباء قدموا من كردستان إيران. فكما بيَّنا في الفصول السابقة بأن أسلاف الأكراد (مثل الغوتيين والكاشيين) هم سكان جبال زاغاروس القدماء، وفي القسم الجبلي المطل على (نهر دجلة) كان هؤلاء في تواصل وتمازج دائم مع أهل النهرين. ولكن مع تسلل (القبائل الناطقة بالآرية) من ايران، انتشرت بين (الاكراد الاصليين) في المناطق (النهرينية ـ العراقية) اللغات واللهجات الآرية الكردية الحالية. بما أن الجبال في كل مكان وزمان لا تساعد على قيام الدول، فقد استمرت مشاركة الأكراد في الدول والحضارات العراقية من خلال التمازج بالعراقيين دون تمايزهم كـ(أكراد)، مثال معروف (ابن خلكان، وصلاح الدين الأيوبي). يكفي التذكير انه في هذه المرحلة كان الكثيرون من أعيان وفقهاء بغداد يحملون ألقاباً كردية، مثل: بابان وزهاوي[33].

لكن بدايات تمايز الأكراد وظهورهم الواضح في تاريخ المنطقة حصل بعد (معركة جالديران: 1514)، التي أتاحت لهم الخروج الكثيف من جبالهم والتوسع الجغرافي الكبير نحو سهول دجلة في نينوى وعموم منطقة الجزيرة، على حساب قرى وبلدات المسيحيين (السريان ثم الأرمن).

---

(32) ـ المصدر السابق.

(33) ـ لا زالت حتى الآن حالة التمازج هذه واضحة في العراق لدى بعض القبائل العربية المجاورة للقبائل الكردية، مثل بعض أقسام من بني ربيعة والقيسيين والجبور وتميم والبيات، حيث تسود بينهم اللغتان العربية والكردية وأحياناً التركمانية كذلك، بالإضافة إلى الانتماء والتزاوج العرقي المشترك، وبالعكس هناك قبائل كردية معروفة تعتقد بأصولها العربية القديمة مثل قبائل الجاف وبابان والحفيد والطالباني وغيرهم، ويذكر الرحالة الأوربي (هاي) الذي زار المنطقة في أوائل هذا القرن: (يفخر كل زعيم كردي تقريباً بأنه ينحدر من أصل عربي، ويحاول إرجاع نسبه إلى النبي أو أحد صحابته) (عن عزيز الحاج ـ القضية الكردية ـ ص84).

لا يمكن فهم التاريخ الحالي لهذه المنطقة المتوترة التي تشكل شمال العراق والجزيرة السورية وجنوب تركيا، المقطونة بالكثير من الأكراد إلى جانب العرب والسريان والترك، دون فهم مؤثرات (معركة جالديران) التي انتصر فيها العثمانيون على الصفويين الإيرانيين. فبعدها بدأ نفوذ (العشائر الكردية) يتصاعد بسبب تحالفهم (المذهبي السنّي) مع العثمانيين المنتصرين. ومن المعلوم أن غالبية العشائر الكردية المنتشرة في جبال زاغاروس، تمكنت من مقاومة الضغط الصفوي ورفضوا التحول إلى التشيع، وبقوا على مذهبهم السنّي وطرقهم الصوفية. هذا الواقع المذهبي حتم تفضيلهم من قبل العثمانيين السنّة لاستخدامهم ضد الصفويين.

بعد انتصار العثمانيين في (جالديران) كافؤوهم من خلال عقد اتفاقية عام 1515م مع مختلف العشائر الكردية، تم على أساسها أن تقوم هذه العشائر بحماية الحدود الجبلية (من جهة العراق والأناضول بمواجهة إيران الشيعية).وتم دعم الفرق العشائرية المسلحة للمشاركة في الدفاع ضد (الخطر الشيعي)[34]. منذ ذلك الوقت استغلت هذه العشائر الحماية العثمانية السنيّة، للتوسع نحو مناطق الجماعات (غير المسلمة أو غير السنية) ضد المسيحيين الأرمن والسريان، وضد اليزيدية، بل وضد التركمان القزلباشية الشيعة. فقامت عدة إمارات كردية تابعة للعثمانيين، مثل: (إمارة بدليس)، و (أسرة بدرخان) في جزيرة ابن عمر و (أمارة هكاري) و (العمادية) مع أمراء أربيل وكركوك و (إمارة بابان) في السليمانية والـ (بيك الكوردي في ديار بكر) و (أمراء حصن كيف)[35].

(34) ـ يعتبر (شرف خان شمس الدين البدليسي: 1543ـ 1603)، من أكبر الشخصيات الكردية التي عملت على كسب العشائر الكردية الى العثمانيين. وهو أمير كردي ايراني (ولد قرب قم وسط ايران)، كان تابعاً للصفويين، لكنه هرب الى العثمانيين الذين منحوه (مدينة بدليس) جنوب تركيا ليكون أميراً عليها ومسؤولاً وسيطاً لكسب الاكراد. وهو مشهور بكتابه (شرف نامه) عن تاريخ الاكراد، دونه باللغة الفارسية.

(35) ـ عن التحالف الكردي العثماني وتأثيره على المنطقة:
ـ السريان وكردستان الكبرى ـ سليم مطر.
ـ الصراع الفارسي العثماني وانعكاسه على ولاية الموصل دراسة في الأحوال السياسية والاقتصادية والاجتماعية: شعبان مزيري.
ـ تاريخ أمراء بهدينان، أ. د. عماد عبد السلام رؤوف.

دور القوى الأوربية بإضعاف الوجود المسيحي!

البعثة التبشيرية الفرنسية، التي كانت باسم مساعدة اطفال النساطرة المسيحيين، تحولهم الى الكاثوليكية، تتهيأ لتقبل الاستعمار الفرنسي!

من الغرائب التي كثيراً ما يتم تناسيها والتعتيم عليها خصوصاً من قبل المسيحيين أنفسهم، سريان وأرمن، ذلك الدور التخريبي ضد المسيحيين، الذي مارسته الدول الاوربية ومبشروها. بل إن هذه (الدول الاوربية المسيحية) هي المسؤول الاول عن كل المصائب التي حلَّت بالمسيحيين السريان والارمن[36].

من المعلوم انه رغم محاربة الدول الغربية (العلمانية) للمسيحية في بلدانها، إلاّ أنها تحالفت معها لتبادل المنفعة: المسيحيون ينشرون مبشّريهم من أجل تهيئة الأساس الروحي والثقافي لتقَّبل الاستعمار في آسيا وأفريقيا وأمريكا!

مع ضعف الدولة العثمانية وتوالي هزائمها أمام روسيا والنمسا، وتنازلها عن البلقان في (صلح كارلوفيتش: 1699)، بدأ النفوذ الأوربي في داخل الدولة العثمانية نفسها. وكانت أدوات هذا النفوذ ثقافية واقتصادية وسياسية، وكذلك دينية. فقامت كل دولة بنشر مذهب كنيسة بلادها: الكاثوليكيه الفرنسية، والبروتستانتية الإنكليزية والأمريكية، والأرثوذكسية الروسية. وشرعت البعثات التبشيرية تبذل الأموال وتحوك المؤامرات

(36) ـ أشنع مثال من العصر الحديث على الدور التخريبي الاوربي ضد مسيحي المنطقة، ما حصل للآثوريين في مذبحة (سيمل 1933) من قبل الجيش العراقي التابع للإنكليز! كذلك لا ننسى ما حصل للمسيحيين من قمع وتهجير بعد الاحتلال الامريكي للعراق 2003، والذي بلغ ذروته في تسليط عصابات داعش الارهابية الامريكية.
كل هذا لأن الغربيين يريدون تحويل شعوب المنطقة الى اسلامية كاملة: (خالية خصوصاً من اليهود والمسيح) كي تسهل وتبرر عملية تشويهها وتدميرها.

ضد بعضها البعض، لتقاسم مسيحيي المنطقة لإجبارهم على الانتماء لمذهب كل منهم، ونشر العداء والتناحر في داخل السريان والأرمن. وبما أن سريان (أو الآشوريين) شمال العراق والجزيرة كانوا أساساً على (الكنيسة النسطورية العراقية)، فقد عانوا الويلات من الكنائس الأوربية المتصارعة. بلغ الأمر بهذه الكنائس أنها كانت تدفع المال والسلاح إلى العشائر الكردية المسلمة، كي يعتدوا ويذبحوا النساطرة ويستولوا على قراهم وبلداتهم، من أجل إجبارهم على طلب حماية الكاثوليك! وكما يصف الرحالة والكاتب الروسي (سي فيغين): (يدس المبشر الكاثوليكي بخمس ليرات في جيب الآشوري ويسجله كاثوليكياً، ويدس الأمريكي عشراً ويسجله بروتستانتياً، ثم تحولهم المساعدة الروسية إلى أرثوذكس.. نعم إنهم يرسلون المبشّرين مع أكياس من الذهب، ليس لمساعدة الفقراء ولا لإطعام الجياع، بل من أجل شراء الذمم والضمائر)[37].

في الحقيقة إن التأثير الأوربي كان سابقاً، ففي عام 1552 بدعم من الكاثوليك **البرتغاليين** في الهند، بدأت أولى الكنائس الكاثوليكية تتأسس في الشمال باسم (الكنيسة الكلدانية الكاثوليكية). أما أتباع الكنيسة الأصلية فأطلق عليهم تسمية (آثوري) واعتبروا أنفسهم أحفاد (الآشوريين). ومنذ ذلك الوقت انقسم سريان العراق إلى (كلدان كاثوليك) يقطنون بلدات الموصل وأربيل، ثم (نساطرة آثوريين) يقطنون البلدات والقرى الجبلية شمال نينوى وفي تركيا (منطقة حكاري وطور عابدين) وإيران (بحيرة وان)، لكن الكثير منهم هاجر إلى العراق ثم إلى أمريكا بسبب الاضطهاد وبدفع من الأمريكان والإنكليز[38].

(37) ـ عن دور المبشرين التخريبي، طالع كتاب الرحالة:
ـ عند منابع دجلة مع الآشوريين والأكراد ـ سي. فيغين ـ ترجمة محمد البندر ـ دار سركون ـ السويد.
ـ كذلك نشجع على مطالعة كتاب مهم يصف مذابح الأكراد ضد المسيحية للرحالة والآثاري المعروف (هنري لايارد):
ـ البحث عن نينوى ـ ترجمة ميخائيل عبد الله ـ دار سركون ـ السويد.

(38) ـ نحن نؤمن أن هنالك استراتيجية غربية قديمة بإخلاء العالم العربي من جميع الطوائف غير المسلمة، من أجل تسهيل عملية الصراع ضد الشعوب العربية باعتبارهم مسلمين معادين خصوصاً لليهود والمسيحيين. أفضل برهان على ذلك: مَنَحَ المستعمرون الفرنسيون الجنسية الفرنسية ليهود الجزائر من أجل فصلهم عن إخوتهم الجزائريين:
حيث أصدر وزير العدل اليهودي الفرنسي (إسحاق كريمييه ـ Isaac Moise Cremieux) عام 1870 قانونا يمنح الجنسية الفرنسية ليهود الجزائر.

(هنري لايارد)[39] يشهد ارتزاق اغوات الاكراد لصالح المبشرين الاوربيين!

((زرت كنيسة القرية الصغيرة، فشاهدت على الجدران بعض صور القديسين بألوان بشعة مع كتابة لاتينية تحتها لا تناسب هذا المكان. سالتهم هل يعرفون ماذا تعني هذه الصور؟
أجابوني: لا، بعد موت كاهننا (النسطوري) قدم الينا المطران يوسف الكاثوليكي، وهو الذي علقها وطلب منّا ان نركع امامها. اما نحن فقد نزعناها عن جدار كنيستنا، وكان جواب (محمود آغا، شيخ الاكراد الميزوريين) إن جمع مخاتيرنا وأمر بضربهم حتى كسرت العصي على اقدامهم، وبعدها ضربونا نحن ايضا. ولهذا تركنا الصور كما علقها الكاثوليكي. وبما ان الاكراد قد باعوا انفسهم لقاء منعهم لأي كاهن نسطوري من الاقتراب للقرية، لهذا نحن مجبرون ان نسمع وعظ المطران الكاثوليكي الذي بين فترة واخرى يأتي الى القرية تحت حماية الاكراد المسلحين))[40]

التوسع الكردي

هذه الدائرة تمثل عموما المناطق التي توسعت فيها القبائل الكردية على حساب السكان الاصليين المسيحيين الارمن والسريان

هكذا بعدما قامت الكنائس الأوربية بشق وإضعاف السريان، ولأنهم يقطنون في مناطق سهلية زراعية، فقد تعرضوا دائماً هم و(اليزيدية) لهجمات العشائر الكردية

(39)ـ هنري لايارد: Austen Henry Layard رحالة وآثاري بريطاني زار شمال العراق وجنوب تركيا بعد عام 1840، وهو من اكتشف آثار نينوى. وقد سجل رحلته في كتابه: البحث عن نينوى:
Austen Henry Layard, Nineveh and Its Remains: With an Account of a Visit to the Chaldæan Christians of Kuridstan, and the Yezidis, vol. 2, Londres, John Murray, 1849

(40)ـ البحث عن نينوى: ص 19

البدوية الجبلية، التي كانت تبحث عن الأراضي الزراعية. وفي القرن التاسع عشر تفاقم الخطر الروسي ودعمه القوى المسيحية (الأرمن والسريان) في أعالي الجزيرة. لهذا كوَّن السلطان عبد الحميد فرقاً حربية شبيهة بفرق القوزاق الروسية، وتتكون أساساً من الأكراد وسميت بفرق (الحميدية). لقد قامت هذه الفرق ومعها الأغوات بدور كبير في طرد السريان من مناطقهم في الجزيرة (كذلك الأرمن في أرمينيا) وارتكاب مذابح كثيرة معروفة ضدهم وإجبارهم على الرحيل أو التحول إلى مسلمين أكراد. بين عامي 1843 ـ 1847 قام الأمير الكردي بدرخان بإبادة ما يقرب من 10 آلاف من سريان منطقة حكاري، والباقون اضطروا للهرب أو تغيير دينهم[41].

أهم الإمارات الكردية العراقية

كما في المراحل السابقة عن ارتباط (أكراد العراق) بالوضع العراقي، كذلك طيلة قرون هذه الفترة العثمانية، ظلت المناطق الكردية الحالية: (أربيل والسليمانية ودهوك) دائماً مرتبطة بالإدارة العراقية، أي ولاة بغداد والموصل؛ لأن الارتباط الجغرافي لهذه المناطق الكردية مع باقي شمال العراق كان وظل يحتّم تبعيتها الإدارية والاقتصادية والسياسية والثقافية. هاهي الإمارات الكردية في هذه الحقبة تؤكد هذه الحقيقة:

(41) ـ عن الفرق الحميدية الكردية:
ـ الدولة العثمانية: الأوضاع السياسية من منتصف القرن التاسع عشر إلى تشكيل فرسان الحميدية (1891 ـ 1923) ماجد محمد زاخوبي بيروت: الدار العربية للموسوعات صفحة 111 و115./ كذلك هنالك مواضيع عديدة عنها وبعدة لغات في ويكيبيديا.

إمارة بهدينان (1376 ـ 1843)

بهدينان نسبة إلى مؤسسها الملك بهاء الدين ابن الملك خليل بن عز الدين العباسي وحفيد المبارك أبي المناقب ابن الخليفة المستعصم بالله، وكان يعرف ببهاء الدين شمزيني، ومن أشهر شعراء هذه الفترة (أحمدي خاني) كاتب الملحمة الشعرية الكردية الشهيرة (مه م وزين). كانت العمادية عاصمة الإمارة ومنطقة نفوذها شملت مدن عقرة، زاخو، زيبار، عين سفني وأجزاء من الموصل وأربيل، وانتهت بواسطة إمارة أخرى منافسة لها وهي إمارة سوران عام (1834م)[42].

إمارة سوران في راوندوز 1816 ـ 1838

قامت في أطراف أربيل، وتنقّل مركزها بين عدة بلدات مثل شقلاوة وراوندوز، ودامت أكثر من عشرين عاماً، والسورانية أيضاً اسم احدى اللهجات الرئيسية للغة الكردية، وحسب المؤرخ الكردي (البدليسي)[43] فإن مؤسس الإمارة رجل بغدادي عباسي اسمه (كولوس ـ خالص)، حيث استطاع أحد أبنائه احتلال إحدى القلاع واتخاذها مركزاً لإمارة سوران، وهنالك من بين حكامها أميرة اسمها (خانزاد)، ومن أشهر أمرائها (محمد الراوندوزي الأعور).

إمارة بابان (1649 ـ 1851)

شيوخ (إمارة بابان) في السليمانية، يقولون عن أنفسهم: إنهم من ذرية (الصحابي خالد بن الوليد المخزومي)، الذين عاشوا بين القبائل الكردية التي كانت تقطن منطقة بَشْدَرْ في شمال العراق، وإن رئيس القبيلة أحمد الفقيه استلم لقب (بَهْ بَهْ) أو (بابان) من السلطان العثماني، مكافأة لكفاحهم ضد الصفويين. مثل بقية الإمارات الكردية كانت حدود الإمارة ومدى استقلاليتها تتغير حسب التحالفات والضغوط الخارجية والصراعات الداخلية. في عام 1781 أو 1783 بنى البابانيون مدينة السليمانية، واتخذوها عاصمة لهم، وكانت علاقة هذه الإمارة متوترة مع الإمارات الكردية الأخرى مثل

(42) ـ عن بهدينان: د.عماد عبد السلام رؤوف: تاريخ أمراء بهدينان.
(43) ـ عن سوران: طالع كتاب المؤخ الكردي البدليسي: (شرف نامه: بالفارسي ومترجم إلى عدة لغات). كذلك:
- Wirya Rehmany, Dictionnaire politique et historique des Kurdes, Paris, L'Harmattan, p. 436 - 438.

(إمارة سوران) في أربيل و (إمارة بوتان) شمال الموصل، بالإضافة إلى خضوعهم إلى موازين الصراع العثماني ـ الإيراني[44].

أمراء الاكراد أحفاد العباسيين!

يحدثنا الرحالة الروسي (فيغين) الذي عايش العشائر الكردية في أعالي الجبال بين الموصل وتركيا قبل حلول عام 1900، عن الاعتقاد السائد بين زعماء وأغوات الاكراد بأنهم من (نسل العباسيين) الذين هربوا من مدن العراق الى الجبال بعد الاحتلال المغولي، واحتموا وانتموا الى العشائر الكردية. وإن ((أحفاد بني العباس الذين استحكموا في مناطق حصينة لا تطال في جبال بوتان، ظلّوا يحتفظون براية سلالتهم العباسية ذات اللون الاسود... وكان شعار أغلب أغوات الاكراد: إن الله حلّل نهب الآخرين الذين اغتنوا على حساب أحفاد العباسيين..))[45]

تعمق المشكلة الطائفية ودور الصراع العثماني ـ الإيراني ـ الوهابي

إن الصراع الإيراني ـ العثماني قد انعكس بصورة مباشرة ودامية وقاسية على العلاقة بين الشيعة والسنَّة، إذ إن السلالة الصفوية الأذربيجانية الحاكمة في إيران تبنَّت التشيع ولكن بطريقتها الخاصة المتطرفة المناقضة تماماً للتشيع العراقي المسالم. فهذا التشيع الإيراني قام بقوة السيف وذبح مئات الآلاف من الإيرانيين الذين كانوا سنَّة بنسبة 80%، وإذا بهم بعد سنوات من عام 1500 تنقلب النسبة إلى أكثر من 80% شيعة! وجعل الصفويون شعار (مسبة الخلفاء: أبي بكر وعمر وعثمان) من واجبات التشيع! والأسوأ من هذا، إن الدولة العثمانية المنافسة التاريخية لإيران على حكم العراق، قد تبنّت رسمياً المذهب الحنفي الكوفي العراقي، حيث مرقد (الإمام الأعظم) في بغداد، وبالتالي أصبح العراق مقراً لمقدسات مذهبي الدولتين، الشيعية والسنيَّة.

وعندما احتل الصفويون بغداد عام 1508م، قام الشاه إسماعيل الصفوي بهدم ما كان فيها من قبور أئمة أهل السنَّة ونبش قبر أبي حنيفة، وذبح جماعة من علمائهم والكثير من أعيانهم، وأشاع مسبة الخلفاء، وبعد أن طرده السلطان مراد الرابع بعد 15 عاماً، قام بذبح الكثير من شيعة بغداد. وسبقت مجزرة مراد عاصفة من وباء الطاعون الشامل قضت على الألوف من أهل العراق المنكوبين سنة 1635م.

(44) ـ عن بهدينان: البغداديون أخبارهم ومجالسهم، تأليف إبراهيم عبد الغني الدروبي، بغداد، 1958م، مجلس آل بابان، صفحة 162.

(45) ـ عند منابع دجلة مع الآشوريين والأكراد ـ سي. فيغين ـ ص 57 و201/ ترجمة محمد البندر ـ دار سركون ـ السويد.

وشمل هذا التخريب الطائفي (الصفوي ـ العثماني) التخريب الحضاري، فقد دمرت الكثير من المعالم والمكتبات التابعة للطائفتين. وقد بالغ العثمانيون في فرض المذهب الحنفي في القضاء والمحاكم. حتى في مناطق الشيعة كان المذهب الحنفي أو الشافعي هو المفروض، وهذا الأمر دفع الشيعة في معاملاتهم الشرعية، إلى الاعتماد على رؤساء العشائر أو الفقهاء، والابتعاد عن الدولة. ظل أكراد العراق على المذهب الشافعي، أما التركمان العراقيون السنيّون، فأغلبهم على المذهب الحنفي، ما عدا القاطنين في أربيل، فهم شافعية. أما القاطنون في مدينتي (قرة تبة وطوز خورماتو) فهم شيعة اثني عشرية. وأهل البصرة كان الكثير منهم من أهل السنّة على المذهب الشافعي، سوى أهل شط العرب فكانوا شيعة، وأهل الزبير سنّة حنابلة.

الحروب الايرانية ـ العثمانية بين 1500 و1900

اولها: معركة جالديران (1532 ـ 1555)، ثم تلتها حروب عديدة في اعوام:

ـ (1554 ـ 1555) و (1578 ـ 1590) و (1603 ـ 1618) و (1623 ـ 1639) و (1730 ـ 1736) و (1743 ـ 1746) و (1775 ـ 1776) و (1821 ـ 1823)

بروز الحركة الوهابية وغزواتها

هذه الصورة المعروفة والمتداولة دائما التي على اساس ان فيها الشيخ عبد الوهاب، لا يمكن ان تكون صحيحة ابدا للسبب البسيط التالي: ان شيخ الوهابية قد توفي عام 1792 ، اما التصوير في العالم فقد عرف بعد عام 1840.
وهذا مثال على مدى امكانية انتشار الاكاذيب وتقبلها التلقائي!

وهم الطائفة التي انبثقت في أواسط 1700 وتأسست في نجد بعد تحالف الفقيه

الحنبلي (محمد عبد الوهاب: الذي درس في البصرة) والشيخ البدوي (محمد بن سعود). جوهر الوهابية يتمثل بالعودة إلى السلف الصالح، ومحاربة كل البدع والمقدسات والرموز والمراقد مهما كانت سنيَّة أو شيعية، والتقيد الحرفي بالنص القرآني والحديث النبوي، وتكفير المذاهب المختلفة. بدأت الحركة الوهابية تهدد العراق منذ سنة 1790 وصارت تمارس الغزو والتخريب ضد قرى وبلدات جنوب الفرات (وكذلك ضد مناطق السنّة في سوريا). وبدأ دعاة الحركة بنشر الدعوة في المدن والأرياف. وفي سنة 1796م استولى الأمير (ابن سعود) على منطقة (الأحساء الشيعية) التي تتاخم العراق من الناحية الجنوبية. وفي عام 1798 فشل الشيخ العراقي (سليمان باشا ثويني) شيخ المنتفق بفتح قلعة الوهابيين، بعد أن تم اغتياله من قبل إرهابي وهابي. كذلك فشلت حملة العثمانيين سنة 1798. وأخيراً تم عقد الصلح في بغداد. لكن غزوات الوهابية عادت في سنة 1802 حيث اجتاحوا كربلاء وقتلوا الكثيرين، حتى من النساء والأطفال. وفي عام 1803 تم اغتيال الأمير (عبد العزيز بن سعود) على يد أفغاني بغدادي اسمه (عثمان). فقام الوهابية بالانتقام ومهاجمة مراعي العشائر العراقية وكذلك بلدة الزبير ومحاصرتها وهدم الشواهد الدينية حولها، مثل قبور طلحة والحسن البصري. واستمروا بغزو العراق حتى انبثاق الدولة الملكية العراقية وعقد الصلح. علماً بأن غزواتهم كانت تشمل المناطق الشيعية والسنية.

الوهابية والبروتستانية!

نحن لا نميل إلى الفكرة القائلة بأن (عبد الوهاب) جنَّده الإنكليز أثناء وجوده في البصرة، ولكن يصح القول منطقياً ومن الواضح أن (عبد الوهاب) قد تعرف وتأثر بـ (المذهب البروتستانتي) أثناء وجوده في البصرة، عبر الجاليات الانكليزية والاوربية. هنالك شبه تطابق بين الاثنين: (طهرانية وأصولية الوهابية: الاعتماد على القرآن والحديث، ورفض تقديس أي انسان حتى النبي محمد بما يعني إزالة حتى قبورهم!؟). وهذا يتطابق مع البروتستانتية التي تأسست قبل الوهابية بقرنين (1517): رفض تقديس الرموز المسيحية، ورفض الاعتراف بالقديسين، والعودة المباشرة إلى الكتاب المقدس، وجعل الكنائس متواضعة خالية من البهرجة.. إلخ.

***

المتغيرات الثقافية

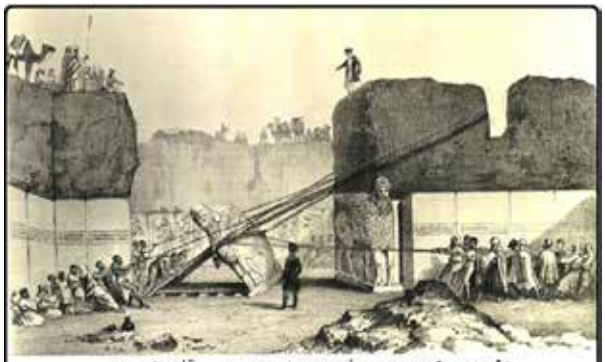

منذ اواسط 1600 بدأ الاهتمام الاوربي بآثار العراق، وفي عام 1845 تم اكتشاف آثار نينوى

إن طبيعة العراقيين وموضع العراق وتاريخه الحضاري المتراكم، كان يحتّم ديمومة روحه الابداعية والثقافية مهما كانت الظروف الحياتية والسياسية قاسية ومدمرة. وهذا الميل العراقي نحو التجديد واكتساب المعارف كان يفرض نفسه على الدول والسلالات الأجنبية الحاكمة ويفرض عليهم بعض الإصلاحات حتى لو كانت غير مفيدة لمصالحهم. فمثلاً قد استمر الولاة ببناء الجوامع والسقايات ودعم بعض المدارس الدينية وتصليح نظم الري وغيرها. ولكن النهضة الإصلاحية الكبرى بدأت في القرن التاسع عشر بتأثير النخب العثمانية الحداثية المتأثرة بالنهضة الأوربية، ويمكن تسجيل أهم معالم النهضة كالتالي:

اكتشاف الحضارة النهرينية

منذ أواسط القرن السابع عشر (1658م) بدأ الاهتمام بحضارة العراق، عندما أحضر الرحالة الإيطالي (بترودي لافاله) من مدينتي (بابل وأور) بعضاً من قطع الآجر المنقوشة، ونشر لأول مرة نسخاً لنقوش أخرى من مدينة (برسيبوليس) عاصمة الفرس الأخمينيين في جنوب غرب إيران. ولاحظ أن هذه النقوش جميعاً كتبت بعلامات في شكل المسامير، مما دعا إلى تسميتها بالكتابة المسمارية. في عام 1778 قام الضابط الدانماركي (نيبور) بدراسة نقوش هذه (الكتابة المسمارية) ونشر العديد من نقوش برسيبوليس ولاحظ أنها مكتوبة بثلاث لغات: (الفارسية القديمة، العيلامية الأحوازية، الأكدية العراقية). وفي مطلع القرن التاسع عشر (1802م) تعرَّفَ (كروتفند) على عشرة من رموزها. وفي

عام 1847م استطاع رولنسون نسخ وتفسير النص البابلي لـ (نقش بهستون) الذي ثبت أنه (أكدي سامي)، ونشر نتائج أبحاثه عامي 1850 و1851م واستمرت جهود العديد من العلماء من أجل فهم وتفسير النصوص المسمارية العراقية ومعرفة أسرار اللغتين العراقيتين السومرية والأكدية بلهجتيهما البابلية والآشورية، وقد ساعد هذا الفهم اللغوي على التوصل إلى المعلومات المفصلة عن هذه الحضارة النهرينية التي تبين أنها أولى الحضارات في تاريخ البشرية مع الحضارة المصرية.

في سنوات الأربعينات من القرن التاسع عشر توصل (بوتا، القنصل الفرنسي) إلى اكتشاف قصر (سرجون الثاني) في (خرسباد ـ نينوى). كذلك تمكن الإنكليزي (هنري لايارد) عام 1845 في (نينوى) من اكتشاف آثار مهمة. ونتيجة لهذه الجهود الأولى في التنقيب الأثري عرفت آثار العراق القديم طريقها إلى متحف اللوفر بباريس (مكتشفات بوتا) والمتحف البريطاني بلندن (مكتشفات لايارد).

إن أهم المكتشفات التي لعبت دوراً حاسماً في معرفة أسرار الحضارة النهرينية، هي (مكتبة آشور بانيبال) في قصر هذا الملك في العاصمة نينوى، وضمت ما يزيد على العشرين ألفاً من الألواح الطينية التي جمعها هذا الملك من كافة أنحاء البلاد وحوت نصوصها العديد من الموضوعات المتعلقة بشؤون الدين والدولة باللغة الأكدية، وبعضها باللغة السومرية، وقد تحقق هذا الكشف الأثري الهام عام 1854م على يد العالم العراقي الموصلي (هرمز رسام) وكان معاونًا لـ (لايارد) في حفائره ثم حل محله.

أما في القسم الجنوبي من العراق، فقد بدأت التنقيبات الأثرية فيه بحفائر (دي سارزك: القنصل الفرنسي بالبصرة) في تل (لجش القديمة) عام 1877م، وعثر فيها على بعض المخلفات الأثرية للسومريين، ومن بينها مسلة العقبان وتماثيل (كوديا) الشهيرة وأسطوانتاه الكتابيتان الضخمتان، وهي معروضة بمتحف اللوفر بباريس. في نهاية القرن التاسع عشر شارك الأمريكان في التنقيب الأثري في جنوب العراق وكشفوا عن مدينة (نيبور: نفر) العاصمة الدينية للسومريين وعثروا فيها على خزانة ضمت الآلاف من الألواح الطينية التي يرجع معظمها إلى بداية الألف الثاني قبل الميلاد (عصر سلالتي آيسن ولارسة)، وسجل فيها أكبر عدد من النصوص الأدبية السومرية المكتشفة.

هرمز رسام (1826 ـ 1910)، ذلك العالم العراقي المَنسي!

كان باحثاً وعالماً آثارياً مختصاً بالعراق القديم. وهو مسيحي عراقي موصلي وكان والده أسقف في كنيسة المشرق الكلدانية. وقد اهتم بعلم الآثار منذ أول شبابه فاستعان به (هنري لايارد) لمساعدته في التنقيب عن آثار نينوى. كما هاجر بتشجيع منه إلى بريطانيا حيث تلقى علومه في جامعة أكسفورد، ثم عاد إلى نينوى للتنقيب عن الآثار. ويعزى إليه اكتشاف (ملحمة كلكامش) و(مكتبة آشور بانيبال). أصبح بعد ذلك مواطناً بريطانياً وساهم بعدة مهمات دبلوماسية في القرن الأفريقي والشرق الأوسط. أمضى بقية حياته في برايتون، حيث تزوج ببريطانية وألّف عدة كتب عن اكتشافاته.

ظهور اللغة الثقافية والكتابة بالكردية

كردستان

بسم الله الرحمن الرحيم

اول صحيفة كردية صدرت في القاهرة عام 1898، باللغة الكرمانجية الكردية،وبالتركي

وهو من أهم المظاهر الثقافية في هذه المرحلة. فقد استمر الاكراد مثل غالبية شعوب الارض، عبر تاريخهم الطويل، بالتعبير الشفاهي بلغاتهم الاصلية، والتعبير الثقافي الكتابي بلغات اخوتهم في المنطقة، وخصوصاً العربية في العراق وسوريا، والفارسية والتركية في ايران والاناضول[46]. وقد برز في هذه اللغات الكثيرون من الادباء والعلماء من اصول كردية وآخرهم في هذه المرحلة شاعرا العراق الكبيران: (معروف الرصافي وجميل صدقي الزهاوي).

إن أقدم النصوص المكتوبة باللغتين الكرديتين: (السورانية والكرمانجية) تعود الى هذه الفترة. فمع توطن الأكراد في سهول شمال النهرين ونشوء الإمارات المستقرة والاختلاط بالسريان والعرب والأرمن، بدأوا يؤسسون لثقافة مستقرة ومكتوبة. إن أقدم نص بالكردية (الكرمنجية)، يعود تاريخه إلى حوالي 1600م (1000هـ) وهو عبارة عن تراتيل دينية مسيحية مكتوبة بسبع لغات مختلفة من ضمنها الكردية، ومنها استمرت الكردية تظهر على شكل أشعار فقط. ولم يظهر النثر إلاّ حوالي 1700، وأقدمها كتاب (الصرف العربي باللغة الكردية: علي الترماخي) ويعتبر أول نص نثري كردي مدون[47]. أما الكتاب الشهير (شرفنامه: حوالي عام 1600) لـ (شرف خان البدليسي) وزير (السلطان سليم الأول) وهو (أول كتاب في التأريخ الكُردي)، لكنه كان بـ (اللغة الفارسية). وإن أول صحيفة كردية باسم (كردستان) قد صدرت في القاهرة عام 1898. أما بالنسبة للتأثير الثقافي العراقي فيكفي معاينة اللغات الكردية وما تحمله من خزين من المفردات السومرية والسامية والأكدية والسريانية والعربية. وما انتشار الأبجدية العربية بين الأكراد إلاّ دليل على ذلك. (اكراد تركيا، مثل الاتراك تبنوا

(46) ـ تاريخ ظهور الكتابة باللغات الكردية لا يبدو متأخراً لو عرفنا بأن الكثير من شعوب اوربا الشرقية والشرق الاوسط وباقي العالم لم تكن لغاتها المكتوبه أقدم من الكردية. على سبيل المثال، حوالي وبعد أعوام: 1600 روسيا ورومانيا وبشتو افغانستان وفلندا وبنغال والكثير من الشعوب. بل غالبية لغات الارض التي تفوق الـ 7000 حتى الان لم تعرف الكتابة.

(47) ـ عن أقدم النصوص الكردية، طالع:

ـ دراسة منشورة للباحث والمؤرخ الكردي (محسن سيدا): (نص كردي يعود إلى نهاية القرن الثامن عشر الميلادي).

ويضيف عن النص النثري الثاني بالكردية:

وجاء بعده ملا يونس الهلقتيني (توفي 1785. كتب أيضاً في قواعد اللغة العربية باللغة الكردية كتاباً أسماه: «التراكيب والظروف»).

الكتابة اللاتينية التركية، لكتابة لغتهم الكرمنجية). لكن هذه الحقائق المتفق عليها من قبل المؤرخين، لم تمنع القوميين من بذل الجهود غير المفيدة لاختراع تاريخ حضاري كردي يمتد لآلاف الأعوام ويدَّعي بأن غالبية تواريخ دول وحضارات الشرق الاوسط من سومريين وميتانيين وحيثيين وميديين وساسانيين، كلهم كلهم أكراد[48].

النهضة الحداثية في القرن التاسع عشر

اول برلمان عثماني : مجلس المبعوثين: 1876

إن أولى خطوات الإصلاح والتحديث في الدولة العثمانية، وبتأثير النهضة الأوربية، بدأت مع السلطان (محمود الثاني) عام 1826 الذي تمكن من التخلص من الجيش الانكشاري الذي كان يرفض التحديث العسكري. وطبعاً شمل هذا الإصلاح وحدات الجيش الانكشاري في العراق. فحلَّت محله قطعات عسكرية جديدة عثمانية حداثية بالإضافة إلى فتح أبواب التطوع للمجندين العراقيين وفرض التجنيد الإلزامي في مناطق عديدة من العراق. وشكّل ما سمّي فيما بعد بالجيش العثماني السادس، والذي انضم اليه الكثير من الشباب العراقي من أبناء السنّة (عرب وأكراد وتركمان) من الموصل وبغداد. وشكلوا أكبر عدد من الضباط العرب في الجيش العثماني، ومنهم كان (نوري السعيد) و(ياسين الهاشمي) وغالبية النخبة التي حكمت العراق بعد نهاية العثمانيين وتأسيس الدولة العراقية عام 1921. وقد رافقت هذه النهضة العسكرية، نهضة تحديث مدنية في جميع المرافق، ومنها مثلاً:

(48) ـ مشكلة القوميين الأكراد أنهم يرفضون فكرة عدم وجود حضارة كردية خاصة حالهم حال غالبية شعوب الأرض. فمثلاً إن شعوب شمال وشرق أوربا لم تكتشف الكتابة والحضارة إلاّ قبل بضعة قرون، بسبب ظروف جغرافية وطبيعية أدت إلى العزلة.

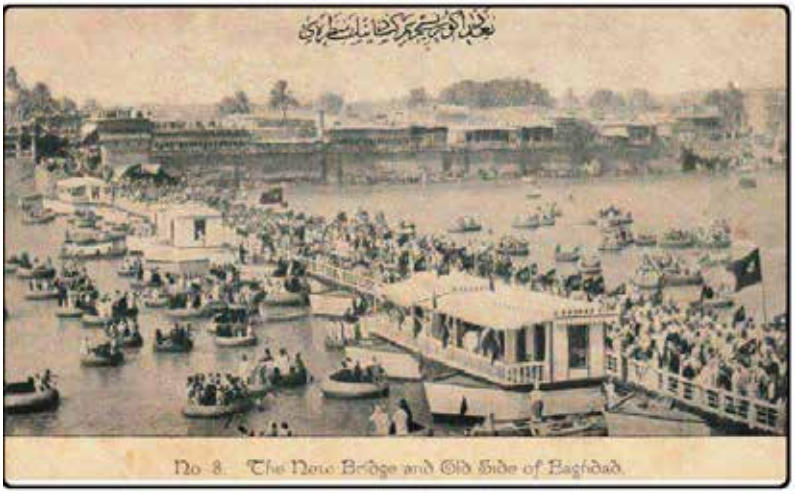

• عام 1856 تأسيس أول مدرسة حديثة أهلية للذكور في بغداد من قبل جمعيات الإليانس اليهودية (الفرنسية الصهيونية).

• عام 1856 تأسيس أول مطبعتين لطبع الكتب، واحدة في كربلاء والأخرى في الموصل.

• عام 1858 وصول أول باخرتين للنقل النهري بين بغداد والبصرة، وقد أشرف عليهما البغدادي (مسعود البلجيكي) لأنه درس في بلجيكا.

• عام 1861 تأسيس أول خط تلغراف بين الموصل وبغداد ثم مع إسطنبول.

• عام 1864 تأسيس أول معمل حديث للنسيج في بغداد أسَّسه الوالي (نامق باشا) وهو المعمل الذي أطلق عليه البغداديون اسم (العبخانة) وكان يدار بقوة البخار وينتج بعض حاجيات الجيش من ألبسة وخيام، وقد قام الوالي مدحت باشا بتطوير المعمل وتوسيعه.

• عام 1868 تأسيس أول خدمة بريدية مركزية وحديثة (إنكليزية) في العراق، بعد أن كان البريد شخصياً.

• عام 1869 تأسيس (مدرسة الصنائع)، تأسست أيام حكم الوالي مدحت باشا، وهي أول مدرسة للأيتام يتعلمون فيها النجارة والحدادة والنسيج وغيرها.

• عام 1870 تأسيس أول معمل للطحن في بغداد.

• عام 1870 تأسيس أول خط (ترامواي) حيث تسير عربة تجرها الخيول على سكة حديد في بغداد.

• عام 1870 لأول مرة يكتشف البغداديون شرب الشاي عند قدوم الشاه الإيراني (ناصر الدين شاه) سنة 1870م إلى بغداد أيام ولاية مدحت باشا.

• عام 1872 تأسيس أول مستشفى حديث في بغداد من قبل الوالي مدحت باشا.

• عام 1880 تمثيل أول مسرحية عراقية في المدارس المسيحية في الموصل، وصدور أول كتاب مسرحي في بيروت للقس الموصلي (حنا حبش) ويحتوي على ثلاث مسرحيات لقصص دينية.

• عام 1881 جلب أول ماكينة لصنع الثلج في بغداد.

• عام 1888 تأسيس أول معمل للمشروبات الغازية في البصرة.

• عام 1889 أسست شركة لنج الإنكليزية أول مكابس للصوف تعمل بالبخار، ثم تأسست مكابس لعرق السوس.

• عام 1889 تأسيس أول مدرسة ابتدائية حكومية في بغداد أيام الوالي سري باشا، وقد تبرع ببنائها العلامة عبد الوهاب النائب، وأطلق عليها اسم (حميدية مكتبي).

• 1893 تأسيس أول مدرسة حديثة للبنات في بغداد، من قبل الإليانس اليهودية، والتي سميت فيما بعد (مدرسة لورا خضوري للبنات).

• عام 1899 تم تأسيس أول مدرسة (حكومية) حديثة للبنات في بغداد في زمن الوالي نامق باشا وسماها بـ (إناث رشيدية مكتبي) وتم تعيين السيدة (أمينة شكورة خانم) معلمة أولى للمدرسة ومعها ثلاث معلمات أخريات والتحقت بها نحو 90 طالبة.

• في أواخر القرن 19 انتشرت المضخات البخارية بين أصحاب المزارع في العراق.

• في أوائل القرن العشرين انتشر استخدام (الفونغراف) وأطلقوا عليه (الصندوق الذي يغني).

• عام 1905 تم تأسيس أول مدرسة (أهلية) للبنات وهي مدرسة الإليانس اليهودية في بغداد، وهي فرع لمدارس الإليانس اليهودية الأوربية.

• عام 1907 تأسست أولى خطوط إسالة الماء، حيث تم نقل المياه بواسطة أنابيب إلى بعض البيوت ولكن من غير تصفية وتعقيم.

• عام 1908 تم تأسيس أول مدرسة حديثة للشيعة (مدرسة الجعفرية) وكان اسمها (مكتب الترقي الجعفري العثماني)، وبعد الحرب العالمية الأولى أصبح اسمها المدرسة الجعفرية.

• عام 1908 تم تأسيس (كلية الحقوق) وهو تاريخ إعلان الدستور العثماني أو المشروطية وكان ذلك زمن ناظم باشا.

• عام 1908 وصول أول سيارة إلى بغداد قادمة من حلب، وقد خرج أهل بغداد يعاينونها بحثاً عن الحصان المخفي في داخلها.

• عام 1909 تم أول عرض سينمائي في بغداد والذي وصفوه بالألعاب الخيالية (السينما توكراف) كان في دار الشفاء الواقعة في الجانب الغربي من بغداد (الكرخ) وبعدها شيَّد التجار أول دار للعرض عام 1911 وسط البستان الملاصق للعبخانة.

• عام 1910 تأسيس أول معمل خياطة في بغداد في محلة الميدان.

• عام 1910 شق أول شارع حديث في بغداد من قبل الوالي (خليل باشا)، والذي حمل فيما بعد اسم (شارع الرشيد).

• عام 1913م إنشاء مسرح للرقص والغناء ترفيهاً لسكان بغداد في موضع لدار الطلبة في الباب المعظم.

• عام 1916م تأسيس ملهى في (مقهى الشط) بجانب الكرخ، وقد مارست الغناء فيه المطربة (روزة نومة) وأختها (ليلو نومة).

النهضة الصحفية

• عام 1816 صدور جريدة (جورنال عراق)؛ أول جريدة عراقية وعربية: صدرت في السنة الأولى من حكم الوالي (داود باشا) في بغداد، وقد سبقت أول صحيفة مصرية (الوقائع المصرية) باثني عشر عاماً. وكانت توزع على قواد الجيش وكبار الموظفين وأعيان المدينة، كما تعلق نسخ منها على جدران السراي. وكانت تحتوي على وقائع العشائر وأخبار الدولة العثمانية وأوامر الوالي والإصلاحات الواجب إجراؤها وما أشبه.

• عام 1869 صدرت في بغداد (جريدة الزوراء) تيمناً بأحد ألقاب بغداد. وقد اعتبرت خطأ أول جريدة عراقية، لأن (جورنال عراق) قد سبقتها بحوالي أربعين عاماً في زمن الوالي (داود باشا). واستمرت الزوراء بالصدور لمدة تسعة وأربعين عاماً حتى عام 1917، وكانت تصدر باللغتين العربية والتركية وتنشر الأخبار والإعلانات الصادرة من ولاية بغداد.

• عام 1885 صدور أول جريدة في الموصل (جريدة الموصل)، وبقيت حتى إعلان الهدنة عام 1918 بين القوات البريطانية والتركية.

• عام 1895 صدور أول جريدة في البصرة (جريدة البصرة) بإشراف اللبناني (سليمان البستاني) بطلب من الوالي (قاسم باشا زهير)، وتوقفت عام 1914.

شخصيات عراقية مبدعة

هنالك عدد كبير من الشخصيات العراقية التي لعبت أدواراً حضارية خلال قرون (السبات) السبعة. ويلاحظ أن بغداد لم تكن فقط عاصمة العراق الحكومية، بل هي

أيضاً العاصمة الثقافية، حيث عاش وأبدع فيها أغلب المبدعين، بمن فيهم الشخصيات العراقية التي من أصول تركمانية وكردية. وهنا بعض الشخصيات المعروفة:

ـ العلامة المطهر الحلي (1250ـ1328): ويعتبر من أهم مصادر الدراسات الشيعية. ولد في مدينة الحلة قبل بضع سنوات من سقوط بغداد ونهاية الدولة العباسية على يد المغول عام 1258م. عاش جل حياته وأبدع في ظل دولة المغول الإيلخانيين والخراب الذي أصاب العراق. وأول من لقب بـ (آية الله)، وقد تمكن من اقناع سلطان المغول (محمد خدا بنده) بالتشيع[49]، وهذا الامر لعب دوراً بنشر المذهب الشيعي في إيران.

كتب حوالي 100 كتاب منها: الإرشاد ـ تبصرة المتعلمين ـ القواعد ـ التحرير ـ تذكرة الفقهاء ـ مختلف الشيعة ـ المنتهى ـ شرح التجريد ـ منهاج الاستقامة ـ تلخيص الكشاف.

(المطهر الحلي) و(ابن تيمية) وتعمق الخلاف المذهبي بين الشيعة والسلفية السنية!

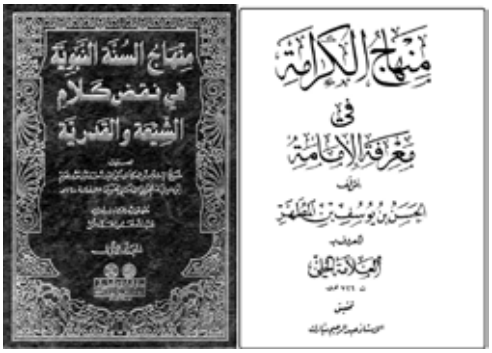

بعد ان أصدر (الحلي) كتابه الشهير: (مِنْهَاجَ الْكَرَامَةِ فِي مَعْرِفَةِ الْإِمَامَةِ) عن التشيع، سرعان ما رَدَّ عليه (الفقية الحنبلي السوري: ابن تيمية) بكتابه المشهور: (مَنهاجَ السنة النبوية في نقض كلام الشيعة والقدرية)، الذي أصبح ولا زال مرجعاً لكل المعارضين للشيعة، وخصوصاً (الوهابية). ثم أعقبه برسالة موجهة الى شيعة العراق: «رسالة إلى المنسوبين إلى التشيع وغيرهم في العراق»[50].

(49) ـ عن تشيع السلطان المغولي، هنالك أسباب منها: أن السلطان طلَّق زوجته بالثلاث وندم، فأفتى له فقهاء المذاهب بأن طلاقه صحيح وأنها تحرَّم عليه حتى تنكح زوجاً غيره، فأرشدوه إلى العلامة الحلي فأحضره وناظر الفقهاء وأثبت لهم بطلان الطلاق، لأنه بلا شهود. كذلك لأن السلطان زار قبر الامام علي في النجف ورأى مناماً، فدفعه ذلك الى البحث عن مذهب التشيع، فأعجبه وانتمى إليه. طالع: ـ دراسة منشورة: لماذا تشيع السلطان محمد خدابنده؟/موقع مركز الاشعاع الاسلامي.

(50) ـ عن المطهر الحلي: «البداية والنهاية» لابن كثير (14/ 125)، «الوافي بالوفيات» للصدفي (13/ 54)، «لسان الميزان» (2/ 317) و«الدرر الكامنة» (2/ 160، 188) كلاهما لابن حجر.

ـ فضولي البغدادي 1494ـ1545: محمد بن سليمان المشهور بـ (فضولي البغدادي): هو شاعر عراقي ولد في (الحلة أو كربلاء)، ويرجع أصله إلى عشيرة (بيات) التركمانية المختلطة. ولقب بسلطان الشعراء التركمان، وقضى أكثر سنوات عمره في كركوك وبغداد والحلة وكربلاء. ويهتم الأذربيجانيون بالشاعر اهتماما كبيراً ويدَّعون أنه من أصل أذربيجاني قدمت أسرته إلى العراق. اشتهر في بلاد فارس والأناضول، وكان ينظم أكثر شعره في اللغات الثلاث (التركية الاذرية والعربية والفارسية).كان شيعياً، ومتصوفاً، أمضى شيخوخته في إسراج مصابيح الصحن الحسيني في كربلاء حتى توفي بوباء الطاعون ودفن فيها.

ـ ابن سند البصري 1766ـ 1826: هو الشيخ عثمان بن سند بن راشد الوائلي، ولد في الكويت التي كانت جزءاً مرتبطاً بولاية البصرة، حيث عاش وأبدع في البصرة. وكان يتردد على بغداد وأصبح مقرباً من الوالي (داود باشا) وكتب تاريخ دولته (مطالع السعود بطيب أخبار الوالي داود). وله مؤلفات في مختلف المجالات الشعرية واللغوية والفقهية والحسابية والتاريخية، ومن أهمها (تاريخ بغداد). وقد توفي في بغداد ودفن في مقبرة (الشيخ معروف).

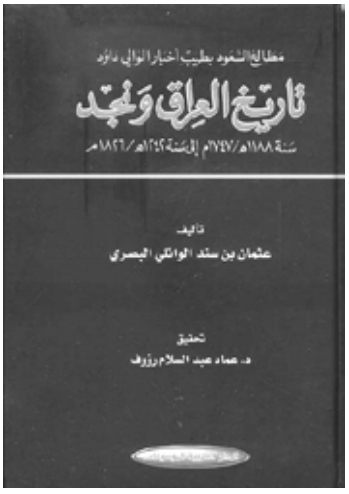

ـ عبد الغني آل جميل 1780ـ 1836: مفتي بغداد والثائر الوطني. ولد في بغداد وأصل عائلته من سوريا، وهو من علماء الدين المعروفين. تقلَّد مناصب دينية وسياسية وأصبح مفتياً للمذهب الحنفي، وكانت له الوجاهة والزعامة في الأوساط العراقية. وكان عالماً

متضلعاً وشاعراً وكاتباً وفقيهاً ومحدثاً. وله دور بارز في تاريخ العراق حيث قام بانتفاضة ضد الوالي العثماني في بغداد عام 1832 مطالباً بالكف عن الإساءة للعراقيين.

ـ أبو الثناء الحسيني الآلوسي 1803 ـ 1854: ويسمى أيضاً (الآلوسي الكبير) لأنه خلف من بعده العديد من الأبناء والأحفاد الذين نبغوا بالفقه والخط والتأليف. وهو مفسر، ومحدث، وفقيه، وأديب، وشاعر، وخطاط بارع. يرجع نسبه إلى مدينة (آلوس) في الأنبار، حيث فرَّ إليها جده الأول من هولاكو التتري عندما اجتاح بغداد. وهو مجتهد، أصبح مفتياً ثم عزل فانقطع للعلم. أصبح مدرساً في عدة مدارس بغدادية، وكان له مجلس ثقافي يختلف إليه رواد العلم والمعرفة. ولعب دوراً كبيراً في إنعاش الحركة الثقافية في بغداد. وذهب إلى إسطنبول فأكرمه السلطان عبد المجيد، ثم عاد إلى بغداد يدوّن رحلاته ويكمل ما كان قد بدأ به من مصنفاته، وله مؤلفات عديدة، مثل: (روح المعاني في تفسير القرآن العظيم) و (المقامات الآلوسية) و (الأجوبة العراقية).

ـ الخطاط سفيان الوهبي (توفي عام 1850): هو من أئمة الخطاطين في بغداد، وتخرج على يده الكثيرون. وكان يتفنن في جودة الخط ويحسن التزويق ويخط اللوحات بالذهب الخالص والمينا. من آثاره الخطية (كتاب التحفة الاثني عشرية) و (القرآن الكريم)، كذلك بعض اللوحات على جدران جامع الشيخ عمر السهروردي وجامع الأحمدية في بغداد.

ـ العلامة إبراهيم فصيح الحيدري 1820ـ 1882: أديب ومؤرخ ولد في مدينة بغداد ورحل وعاش لفترة في الأستانة في تركيا، وتولى نيابة القضاء في بغداد. وله مؤلفات في التاريخ والفلك، منها: (عنوان المجد في بيان أحوال بغداد والبصرة ونجد)، (أصول الخيل والإبل الجيدة والرديئة)، (معاني الألباب في الإسطرلاب)، (أعلى الرتبة في شرح النخبة).

ـ الشاعر رضا الطالباني (1835ـ 1909): وهو الشيخ العلامة أبو عبد الله، من أعلام شعراء بغداد، وأدبائها المعروفين، ومن علماء الصوفية، ولد قرب جمجمال في شمال العراق، وكان خبيراً بآداب العرب والأتراك والفرس والأكراد، وله مؤلفات في لغاتهم. له مجاميع أدبية ومؤلفات منها (في الهجاء) للرد على الشاعرين (الرصافي

والزهاوي)، وكان له مجلس ثقافي يعقده في الحضرة الكيلانية، ويحضره علماء بغداد وأدباؤها، ودفن في مقبرة الحضرة الكيلانية في بغداد.

ـ الشاعر محمد سعيد الحبوبي (1849 ـ 1915): ولد فى النجف ودرس القرآن والعربية والأدب والفقه والأصول، كما صاحب المجدد جمال الدين الأفغاني لأربع سنوات فى دراساته. وكانا زميلين لدرس واحد وكان بينهما تأثر وتأثير ولقاء في المبادئ العامة الإصلاحية. اشترك في ثورة العشرين وقاد جيشاً من المتطوعين عام 1914م، وكان دوره كبيراً مع مهدي الحيدري والخالصي وغيرهم. طرق أنواع الشعر؛ منها الغزل والخمرة. وعانى من تهجمات الإسلاميين المتشددين.

ـ الفنان عثمان الموصلي 1854 ـ 1923:

ولد في الموصل من عائلة فقيرة وصار أعمى وهو طفل بسبب الجدري. تعلم حفظ القرآن والموسيقى والألحان وحفظ الأشعار وعلوم العربية على علماء عصره. تعلم أيضاً الفارسية والتركية. استقر في (بغداد) فاشتهر فيها بقراءة المولد وذاع صيته. ثم عاد إلى الموصل وانتمى إلى الطريقة الصوفية القادرية. سافر إلى مصر وأصدر مجلة أسماها (المعارف) لفترة وجيزة. سافر إلى إسطنبول أكثر من مرة واستمع إليه الناس في جامع آيا صوفيا وأعجبوا به. وأهم الشخصيات التي تعَّرَف إليها في إسطنبول المتصوف السوري الشهير (محمد أبو الهدى الصيادي) وأخذ عنه الطريقة الرفاعية، وقدمه إلى السلطان عبد الحميد، وأصبح من حاشيته المقربة. وكان يعتمد عليه في مهمات دبلوماسية حيث أرسله إلى ليبيا والتقى السنوسي. وكان يخطب في الحج

باسم السلطان. وفي مصر عام 1895 درس على يديه الموسيقار عبده الحامولي وغيره من رجال الموسيقى والفن ودرسوا عليه فنون الموشحات. والتقى عام 1909 بـ (سيد درويش) في الشام الذي تعلم من عثمان فن الموشحات وفنون الموسيقى. لديه الكثير من الموشحات والأغاني وأشهرها: (زوروني بالسنة مرة)[51] التي غنيت من قبل سيد درويش ثم فيروز، (فوق النخل فوق)، (لغة العرب اذكرينا)، (يا أم العيون السود).

ـ المتصوف خالد البغدادي النقشبندي الشهرزوري (1778 ـ 1826): يعتبر مؤسس فرع (الطريقة النقشبندية) في العراق والشرق الاوسط (أصل الطريقة تركية من آسيا الوسطى)[52]. ولد في (قرة داغ ـ السليمانية) الكردية شمال العراق، وعاش وتعلم في بغداد وتنقل في الهند وتركستان، ثم استقر في دمشق حتى وفاته بالطاعون. وكان لهذه الطريقة دور في مواجهة الحركة الوهابية التي تمثل الفكر السلفي؛ لهذا فإن البغدادي قد تلقى الدعم من الدولة العثمانية لمواجهة الوهابيين أعداء العثمانيين والشيعة. من نتاجاته: خطب وفتاوى، ورسائل تعتبر أساسية لدى أتباع الطريقة[53].

وضع المرأة

لو أخذنا مثلاً كتاب (حوادث بغداد في 12 قرن) للباحث (باقر أمين الورد) وهو كتاب قيّم وضروري لكل باحث في تاريخ العراق، حيث يسرد بطريقة خبرية

(51) ـ بالنسبة لأغنية (زوروني بالسنة مرة)، وحسب عدة مصادر، قد أنشدها الموصلي بعد زيارته لقبر الرسول.
ـ خالد القشطيني: صحيفة الشرق الاوسط/21 فبراير 2020 مـ رقم العدد [15060]
ـ «زوروني كل سنة مرّة» لسيد درويش أم للأخوين رحباني أم لعثمان الموصلي؟/ سليمان بختي / صحيفة النهار: الثلاثاء ـ 22 أيلول 2020

(52) ـ من المعلوم أن الطريقة النقشبندية تأسست في القرن السادس عشر في تركستان (آسيا الوسطى) وبالذات في بخارى وطشقند، ثم انتشرت في الهند وإيران. بعدها انتشرت في العراق وعموم الشرق الأوسط على يد واحد من أبرز شيوخ الطريقة هو (السيد خالد البغدادي). فهو الذي نشر هذه الطريقة في العراق والشام وتركيا وعموم الشرق الأوسط.
ـ هنالك الكثير من المصادر عن حياة خالد النقشبندي، منها:
ـ كتاب «علماء دمشق وأعيانها في القرن الثالث عشر الهجري: محمّد مطيع الحافظ ونزار أباظة، الجزء الأول، ص 298 ـ 335. دار الفكر ـ دمشق.

(53) ـ طالع:
ـ مكتوبات الشيخ المجددي مولانا خالد النقشبندي البغدادي الشهرزوري/ جمع وترتيب محمد علي القرة داغي. بالعربية والفارسية
الناشر Istanbul: المكتبة الهاشمية، 2015.

متسلسلة أهم أحداث بغداد منذ تأسيسها عام (762م) حتى وقتنا الحالي. يلاحظ بصورة واضحة وغريبة وغير مقصودة كيف أن معدل ذكر أخبار النساء يتنامى مع تنامي الازدهار الحضاري في بغداد العباسية. نساء من مختلف الأجناس والأدوار، شاعرات سياسيات متدينات محسنات مغامرات. ثم يبدأ العد يتراجع مع تراجع المستوى الحضاري وتفاقم الكوارث وتنامي الانحطاط، فتتصاعد الفحولة وتتراجع الأنوثة، حتى يهيمن الغياب المطلق لذكر دور المرأة مع سقوط بغداد وغياب دور كل العراقيين (رجال ونساء) عن الحياة العامة، إذ سيطرت العناصر الأجنبية على بلادهم وعلى مقدراتهم. بالتدريج في أواخر الفترة العثمانية تبدأ نقاط مضيئة تبزغ هنا وهناك متمثلة خصوصاً بظهور مدارس البنات في نهايات القرن التاسع عشر.

شخصيات نسوية متميزة[54]

ـ (معاني جويريدة) المرأة البغدادية التي دفنت في روما

إنها قصة إنسانية نادرة بين شابة بغدادية ورحّالة ومؤرخ نبيل إيطالي، ولد الرحالة (بيترو ديللا فاليه) في روما عام 1586 من عائلة إيطالية رومانية عريقة ما تزال تحتفظ إلى اليوم بشارع يحمل اسمها (Maani Gioerida della Valle) في قلب روما وكنيسة فخمة شيَّدها أحد أفراد العائلة. بعد تجوال في تركيا وسوريا بلغ العراق عام 1616

(54) ـ جميع هذه الشخصيات النسوية، سبق وأن نشرنا عنهن في (موسوعة المرأة العراقية) عن مجلة ميزوبوتاميا 2004.

وتجول في بغداد وبابل وكتب رحلته وعن اكتشافاته الأثرية. في بغداد تعرف إلى رجل مسيحي بغدادي هو السيد (حبيب جويريدة) فاستقبله وأكرمه واختار له سكناً مناسباً، وتعرَّف صدفة إلى ابنة هذا البغدادي والتي اسمها (معاني) فشغف بها وطلب الزواج منها. ويتم الزواج البغدادي بين (ديللا فاليه) و(معاني جويريدة) في حفل بغدادي لم ير مثله هذا النبيل الإيطالي في حياته وخلال رحلاته.

وكانا يتفاهمان باللغة التركية. تمكن الرحالة من إقناع زوجته أن تصاحبه في رحلته إلى بلاد فارس. لكنها أصيبت بمرض مفاجئ في إيران وعاجلها الموت وهي حامل يوم 30 كانون الأول 1621 وعمرها ثلاثة وعشرون عاماً. لكن الزوج الوفي، رفض التخلي عن زوجته حتى بعد موتها. فقد اتخذ قراراً جنونياً، حسب ما كتب: ((لقد قررت أن لا أواريها الثرى في هذه البلاد بل سأحمل جثمانها إلى مقبرة آبائي وأجدادي في كنيسة أراجيلي في روما في ظلال الكمبيدولو التل العجيب)). فقام بتحنيطها، وخلال ترحال جنوني يثير العجب ظل يصطحب الجثمان مدة أربعة أعوام، من بلاد فارس إلى الهند والبحر العربي والعراق وسوريا حتى أوصلها إلى روما وأنزلها بيديه في ضريح الأسرة في أجمل كنائس روما. وقد أصبح قصر (ديللا فاليه) مزاراً يجد فيه الزوار نوادر التحف والأزياء والمومياء المصرية والمخطوطات الشرقية واللوحات والآثار التي حملها من رحلته إلى الشرق ووضعها جوار قبر زوجته العراقية (معاني جويريدة). وللأهمية التاريخية التي مثلتها رحلة (ديللا فاليه) وتجربته قال (غوته) الشاعر الألماني الشهير: ((إن قراءة رحلة ديللا فاليه كشفت لي عن الشـرق))!!

ـ **(شهربان) زوجة الوالي المصلح (مدحت باشا):** وهي امرأة عراقية من أصل شركسي كانت تعيش في عائلة وجيه بغدادي من عائلة النقيب. وقد تعرف عليها (مدحت باشا) أثناء زيارته لهذا الوجيه البغدادي، ولاحظ أنها تشبه الفتاة التي أتته في حلمه منذ أيام. وبعد الزواج خلف منها ولداً وحيداً هو (علي حيدر). بعدها نقل إلى إسطنبول وتسلم العديد من المناصب وقاد الحركة الدستورية هناك. وفي عام 1881 أدانته المحكمة باغتيال السلطان عبد المجيد، فصدر الحكم بنفيه إلى مدينة الطائف في الحجاز، ثم تم اغتياله هناك. ظلت زوجته (شهربان) طيلة غيابه وفية له، وحاولت المستحيل والاتصال بالساسة من أجل إنقاذه، رغم كل الظروف والدسائس التي مر بها،

رسالة (شهربان) الى زوجها (مدحت باشا)

اثناء نفي هذا الوالي الى الحجاز حتى مقتله هنالك، تبادل مع زوجته العراقية عدة رسائل. وهذا مقطع من آخر رسالة كتبتها (شهربان)، لكن زوجها لم يقرأها لأنها وصلت بعد مقتله:

((زوجي الحبيب:

أريد أن أعترف لك بشيء، أرجو أن لا تسخر مني. لقد اشتقت إلى دفئك. أخجل من كتابة ذلك، وأخشى أن يقرأ هذه الرسالة شخص آخر قبل وصولها إليك، ولكن لم يعد يعنيني أن يعرف مخلوق ما يعرفه رب العالمين! سيدي، قلبي وروحي وعواطفي في انتظارك، أحتضنك بشوق ولهفة، تعال تعال تعال!

زوجتك المخلصة شهربان))[55].

ـ الشاعرة الشعبية فدعة: وهي شاعرة ريفية نشأت في القرن الثامن عشر في أهوار ميسان، وأصبحت أشبه بالأسطورة بسبب أشعارها المبدعة والعميقة والجريئة. لها أخ وحيد (حسين) وعشيرتها تعيش على تربية الجاموس وما يطلق عليهم المعدان أو الدبات أو الدبية، وهم الذين يستوطنون أعماق الأهوار مع جواميسهم. وتقرب حكاياتها من الشاعرة الخنساء في رثائها. فقد وصفت بأشعار معروفة معاناتها بسبب فقدانها لأخيها ثم زوجها. اسمها (فدعة ابنة علي الصويح)، وهي حكيمة ولها أمثال ترددها الناس ومقولات تعطر المجالس: (الولد مولود والرجل موجود والأخ مفگود). والدها كان شاعراً وشيخاً لعشيرة بني إزريج (الأزارقة)، ويقال: إنها تزوجت شيخ عشيرة الخزاعل (حمد آل حمود)، وكانت تشارك معارك عشيرتها من خلال أشعارها التشجيعية، وقد تفجرت قريحتها بعد مقتل أخيها (حسين)، وهذا مقطع من قصيدة لها بعد وفاة زوجها (حمد آل حمود):

حمد مرضي العرب والروم والباشات يجالسها ويكلمها بسبع لسنات
لسان للعرب ولسان للبيگات ولسان لعد الروم والشاهات
ولسان يعرف الرمز والشفرات ولسان يبلّم كل حواجبها

ـ الاميرة الكردية خانزاد: هي أميرة مشهورة بين أكراد العراق ومعنى اسمها: (بيت الكرم). تاريخها غير متفق عليه، والمؤكد أنها عاشت في زمن العثمانيين. والدها (أمير سوران) الذي كان في صراع مع (إمارة بابان). وبعد أن سجنه العثمانيون في بغداد، استلمت هي الامارة وأحسنت إدارتها وأنجزت الكثير من الخدمات وعمَّرَت

عدة جوامع وأسسَّت حصوناً. أستتب الأمن في زمانها الى درجة أن الأهالي يتغنون بذكراها ومدحها الشعراء.

وتوصف بأنها كانت امرأة فارعة الطول جميلة الخلق تتمتع بقوام رشيق وجميل بالإضافة إلى ذلك كانت امرأة ذكية وشجاعة وقوية وفارسة بارعة في نفس الوقت، وكانت تتسلح كالرجال.

ـ ماري تيريز الأسمر (الأميرة البابلية)

ولدت في الموصل عام 1804، من عائلة مسيحية سريانية أصلها من مدينة (تلكيف). وهي التي أطلقت على نفسها في إنكلترا لقب (أميرة بابلية). وتعتبر أول امرأة رائدة للثقافة العراقية الحديثة، لأنها أول عراقية تصدر كتاباً، وإن كان بالانكليزية. تمكنت من الهجرة إلى بريطانيا بمساعدة عائلة درزية غنية لبنانية. هنالك تزوجت من بريطاني وتعلمت الإنكليزية، وصدرت لها عدة كتب وموسوعات منها عام (1844) كتاب مهم عن حياتها في العراق، موجود في المكتبة البريطانية وترجم إلى العربية[55]. تصف فيه بشكل أنثربولوجي وقصصي المجتمع والحياة العراقية في تلك الفترة وخصوصاً في الموصل، وكذلك في بغداد، وتقول إن عائلتها كانت في الاصل تعيش في بغداد: (ولكن بسبب وباء الطاعون الذي انتشر في بغداد سنة 1804 مما جعل والدي يقرر

(55) ـ كتاب (مذكرات أميرة بابلية) صدرت الطبعة الثانية عام 2018 عن مؤسسة «شمس للنشر والإعلام» بالقاهرة. ترجمة وتحقيق الأديبة والتشكيلية البريطانية العراقية: أمل بورتر.

الرحيل والابتعاد بعائلته إلى الريف بقرب خرائب نينوى حيث كان يملك منزلاً كان يطلق عليه اسم قصر العزة. (في هذه الفترة وُلِدتُ في خيمة منصوبة في الصحراء ليست ببعيدة عن دار والدي). وهي لم تتنكر لأصلها، فتقول:

(إنني أفضل بساطة الإنسان الشرقي على مكر الإنسان الأوربي. كما أن البدوي القادم من الصحراء قد يضطر إلى قتلك بسبب الحاجة، ولكنه دائماً يلتزم بوعوده ولَكَ أن تثق به، لهذا دهشتي كانت عظيمة عندما كنت في روما التي تعتبر الينبوع الرئيسي للمسيحية، سمعت حكمة تقول: لا تثق بأحد حتى لو كان والدك)!